التوبـــة النصـــوح

التوبة هي الرجوع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عما يكرهه ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً ؛ بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، فالتوبة هى حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة ، فيدخل فيها الإسلام والإيمان والإحسان ، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وإنما يحب الله من فعلَ ما يحب وتركَ ما يكره(١) .

وقول الله تبارك وتعالى ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾ [الفرقان : ٧٠–٧١] ، فيه قولان : أصحهما أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذلك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر وتاب فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار حيث يجعل مكان السيئة توبة ـ والحسنة مع التوبة ـ فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها فتوبة العبد منها حسنة حلت مكانها ، فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته كما ثبت بالسُّنَّة وصحت به الآثار المروية عن السلف ﷺ ، « فعن أبي فروة أنه أتى رَسُولَ اللَّه ـ ﷺ ـ فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ ، **فقال : أسلمت ؟** ، فقال : نعم ، **قال : فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها** ، قال : وغدراتي وفجراتي؟ ، **قال : نعم** ، فما زال يكبر حتى توارى »(٢) .

---

(٢) مدارج السالكين ـ بتصرف .

(٢) الطبراني .

وأما حديث « أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ـ ﷺ ـ : **«إِنِّي لأَعْلَمُ آخر أَهْلِ الجَنَّة دُخُولاً الجَنَّةَ وآخر أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً منْهَا ، رَجُلٌ يُؤْتَى به يَوْمَ القِيَامة فَيُقَالُ اعرِضُوا عَلَيْه صغَارَ ذُنُوبه وَارْفَعُوا عَنْهُ كبَارَهَا ، فَتُعرضُ عَلَيْه صغَارُ ذُنُوبه فَيُقَالُ عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ نَعَمْ ، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ منْ كِبَارِ ذُنُوبه أَنْ تُعرَضَ عَلَيْه ، فَيُقَالُ لَهُ فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَة حَسَنَةً ، فَيَقُولُ رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاء لاَ أَرَاهَا هَا هُنَا ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ـ ﷺ ـ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ »**، وورد بلفظ « **إِنِّي لأَعْرِفُ آخر أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً منَ النَّارِ ، رَجُلٌ يَخْرُجُ منْهَا زَحْفاً فَيُقَالُ لَهُ انْطَلقْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ ـ قَالَ ـ فَيَذْهَبُ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ فَيَجِدُ النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا المَنَازِلَ فَيُقَالُ لَهُ أَتَذْكُرُ الزَّمَانَ الَّذى كُنْتَ فيه فَيَقُولُ نَعَمْ ، فَيُقَالُ لَهُ تَمَنَّ ، فَيَتَمَنَّى ، فَيُقَالُ لَهُ لَكَ الَّذى تَمَنَّيْتَ وَعَشَرَةُ أَضْعَافِ الدُّنْيَا ـ قَالَ ـ فَيَقُولُ أَتَسْخَرُ بِي وَأَنْتَ المَلِكُ ، قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ـ ﷺ ـ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ** » (١) .

فإن كان التبديل فيه في حق المُصرّ على السيئات الذي عذّب عليها فزال أثرها بالعقوبة ، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة ، فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته ، لأن التوبة فعل اختياري أتى به العبد طوعاً ومحبة وخوفاً من الله ، وأما العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصيبه بغير اختياره بل بفعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو الذنوب أعظم من تأثير المصائب التي تناله بغير اختياره (٢) .

والتوبة تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها ، وأعظم الذنوب الكفر والشرك بالله ـ عز وجلَّ ـ الموجب للخلود في النار ، وبالتوبة النصوح يغفرها الله

---

(١) متفق عليه.

(٢) طريق الهجرتين.

ـ عز وجلَّ ـ ويُرجى للعبد بعدها أن يكون من أهل الجنة فـ «**الإسلام يجبُ ما كان قبله**»(١) ، و« **ثلاثَةٌ يُؤْتَونَ أجرَهُم مرَّتَينِ... وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتابِ الَّذى كَانَ مُؤْمِناً ، ثُمَّ آمنَ بالنَّبىِّ ـ ﷺ ـ فَلَهُ أَجْرَانِ ...**»(٢)،وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يعلمنا الإستغفار من الذنوب كلها فيقول : « **اللَّهُمَّ اغْفرْ لى ذَنْبى كُلَّهُ دقَّهُ وَجلَّهُ وأَوَّلَهُ وآخرَهُ وعَلانيتَهُ وَسرَّهُ** »(٣) ، وكان يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْليمِ : « **اللَّهُمَّ اغْفرْ لى مَا قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ منِّى ، أَنْتَ الْمُقدِّمُ وَأَنْتَ الْمؤَخِّرُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ** »(٤) .

والتوبة النصوح إن كانت من معصية بين العبد وبين اللّه ـ تبارك وتعالى ـ ولا تتعلق بحق آدمي فلابد للعبد أن يتوب إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ فقط،لا إلى شيخ أو غيره...كما في الآية ﴿ **فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾وأن يقلع التائب عن المعصية، ويندم عَلَى فعْلِها،ويعزم ألا يعود إليها أبداً ؛وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فهذه الثلاثة الماضية وأن يبرأ منْ حق صاحبها ، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه،وإن كان حدّ قذف ونحوه مكنّه منْه أو طلب عفوه ،..... **ولابد** أن يرجع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره ويثابر على ذلك **قولاً وفعلاً فالتائبون** هم : ﴿ **الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)** ﴾ [التوبة:١١٢] ، يؤكده قوله عز وجلَّ ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)** ﴾ [الفرقان:٧١] ، **أي ومن تاب فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب** التوبة النصوح،لذلك أُكد بالمصدر(٥) ؛ فإن فقد واحداً من هذه لم تصح توبته .

فإذا كان فضل التوبة عظيم هكذا،فهلم إليها إخواني،ولنا في رسول الله ـ ﷺ ـ الأسوة الحسنة ، فقد قال : « **يا أَيُّها النَّاس تُوبُوا إِلى اللَّهِ واسْتغْفرُوهُ فإني**

(١) صحيح الجامع . (٢) متفق عليه .
(٣) ، (٤) مسلم . (٥) فتح القدير .

أتوبُ في اليَومِ مائة مرَّة »(١) ، وكان يعدُّ لرَسُول اللّه ـ ﷺ ـ في المجلس الْواحد مائةَ مرَّة « ربِّ اغْفر لي وتُبْ عليَّ إنَّك أنْتَ التَّوابُ الرَّحيمُ »(٢) ، و« منْ لَزِم الاسْتغْفَار جعل اللّه لَهُ من كُلِّ ضيق مخرجاً ، ومن كُلِّ هَمٍّ فرجاً ، وَرَزَقَهُ منْ حيثُ لا يَحْتَسبُ »(٣) ، و« من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار »(٤) .

ولنسارع إخواني فـ« إن الله تعالى يبسُطُ يدهُ باللَّيْلِ ليتُوب مُسيءُ النَّهارِ ، وَيبْسُطُ يَدهُ بالنَّهارِ ليَتُوبَ مُسيءُ اللَّيْلِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ من مغْربها »(٥) و« للَّهُ أَشدُّ فرحاً بتوبة عَبْده حين يتُوبُ إلْيه منْ أحَدكُمْ كان علَى راحلَته بأرْضِ فلاة فانفلتتْ منْهُ وعلَيها طعامُهُ وشرَابُهُ فأيس منْها فأتى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظلِّها وقد أَيِس منْ رَاحلته ، فَبيْنما هو كَذلكَ إذْ هُوَ بها قائمة عنْدَهُ فأخذ بخطامها ثُمَّ قَالَ منْ شدَّة الفرح : اللَّهُمَّ أنت عبْدي وأنا ربُّكَ ، أخْطأَ من شدَّة الفرح »(٦) .

وسيِّدُ الاسْتغْفار أنْ يقُول الْعبْدُ : « اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لا إله إلاَّ أنْتَ خلَقْتني وأنَا عَبْدُكَ وأنَا على عهْدكَ ووعْدكَ ما اسْتَطَعْتُ ، أعُوذُ بك منْ شرِّ ما صنَعْتُ ، أبوءُ لَكَ بنعْمتك عليَّ وأبوءُ بذَنْبي فَاغْفرْ لي فإنَّهُ لا يغْفرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنْتَ ، منْ قَالَهَا منَ النَّهارِ مُوقناً بهَا فمات منْ يومه قبل أنْ يُمْسي فهُو منْ أهْل الجنَّة ومَنْ قَالَهَا منَ اللَّيْلِ وهُو مُوقنٌ بها فمَاتَ قبل أنْ يُصْبح فهُو منْ أهْلِ الجنَّة »(٧) .

واستغفار العبد لأبيه برٌّ به ، ويرفع درجة الوالد في الجنة فـ« إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول أنَّىٰ لي ، هذا فيقال باستغفار ولدك لك »(٨)، و« من

---

(١) مسلم .
(٢) الترمذي و صححه
(٣) أبو داود .
(٤) صحيح الجامع .
(٥) مسلم .
(٦) مسلم
(٧) البخاري
(٨) صحيح الجامع

استغفر للمؤمنين وللمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة » [١] ؛ طلباً للثواب العظيم وسلامة للصدر تجاه إخوانه المؤمنين واستكمالاً للإيمان وتشبهاً بملائكة الله المقربين ، حملة العرش .

وهناك توبة أخرى ، توبة ليست من الذنوب وفقط ، بل من إضاعة الوقت في غير مراقبة الله ـ عز وجلَّ ـ ،والاستمرار على الحال الصحيحة الصادقة مع الله ـ جلَّ وعلا ـ حال لا تكدرها جميع الأغيار ـ فالمراقبة تعطي نوراً كاشفاً لحقائق المعرفة والعبودية،وإضاعة الوقت تغطي ذلك النور ـ وذلك يدعو إلى درك النقيصة ، إذ من يحافظ على حفظ وقته بهذه الحال مع ربه مترق ـ ولابد ـ إلى درجات الكمال، فإذا أضاع هذا الوقت لم يقف موضعه بل ينزل إلى درجات من النقص ـ فليس في الشريعة وقوف ألبته ـ بل إما تقدم وإما تأخر عن الله ـ عز وجلَّ ـ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المدثر :٣٧] .

وهناك توبة أخرى أعلى مقاماً ، وهى توبة المحبون المخلصون لربهم ، الذين يستقلون في حق محبوبهم الأعلى جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم ، فلا يرونها قطُ إلا بعين النقص والازدراء عليها ، وذلك لعلمهم بأن شأن محبوبهم الأعلى أعظم قدراً من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له ، وإذا غفلوا عن مراد محبوبهم الأعلى منهم ولم يوفوه حقه تابوا إليه من ذلك توبة أصحاب الكبائر منها ـ فالتوبة لا تفارقهم أبداً ـ فتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون آخر ، وكلما ترقوا في حبهم ، ازدادوا معرفة بحقه وشهوداً لتقصيرهم فعظمت لذلك توبتهم ، ولذلك كان خوفهم أشد وازدراؤهم على أنفسهم أعظم ، وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم [٢] .

فائدة :

الفرق بين الاستغفار والتوبة ، أنهما كالإسلام والإيمان ، إذا اجتمعا افترقا ،

---

(١) صحيح الجامع.

(٢) مدارج السالكين ـ بتصرف .

وإذا افترقا اجتمعا ، بمعنى أنه إذا ذكر الاستغفار مفرداً في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهرة ، كان معناه دعاء الله ـ عز وجلَّ ـ باللسان بطلب المغفرة منه ، وهى محو الذنوب الماضية ، وإزالة أثرها ، والوقاية من شرها في المستقبل ـ وما استغفر من أصرَّ ـ فالاستغفار لذلك يتضمن التوبة بل هو التوبة بعينها ، والتوبة مفردة تتضمن الاستغفار ، وتزيد عليه الرجوع إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بالقلب واللسان والجوارح بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره ويثابر على ذلك قولاً وفعلاً ، والندم على الذنوب الماضية ، والعزم على عدم فعلها في المستقبل ، فالاستغفار من باب إزالة الضرر بأن يغفر الله له فيقيه الله شر الذنب ، والتوبة طلب جلب المنفعة بأن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه ، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده ، والله أعلم (١) .

علامة قبول الله ـ تبارك وتعالى ـ توبة العبد :

حصول انكسار خاص يحصل لقلب العبد لا يشبهه شيء ، انكسار بين يدي الله ـ عز وجلَّ ـ كحال العبد الآبق بين يدي سيده حياءً منه مع حبه الشديد له وشدة حاجته إليه وخوفه منه ، وأن يكون حاله بعد التوبة خيراً مما كان قبلها ، **ولا يزال يخاف من عاقبة ذنبه عليه ولا يأمن مكر الله طرفة العين ، وانخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً موصفا على قدر عظم الجناية وصغرها ، بل على قدر تقوى الله عز وجلَّ في قلب العبد(٢) ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾** [الحج : ٣٢] .

---

(١) ، (٢) مدارج السالكين ـ بتصرف .

شهـــادة التوحيـــد

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إن الله سيُخلِّص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء** »[1] ، وفى صحيح سُنن ابن ماجة بلفظ « **يُصَاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ...** » .

فانظر ـ أخي الكريم ـ كيف فاقت شهادة التوحيد تسعة وتسعين سجلاً من السيئات ، كل سجل مثل مد البصر ، فماذا لو أكثرنا منها فهي « أحسن الحسنات » كما في الحديث ، بل وماذا لو أكثرنا منها مع العلم بمعناها والعمل بمقتضاها ، والإخلاص فيها ، والحب التام لها ولأهلها ، واليقين الجازم بها ، والدعوة إليها ، مع عدم الإتيان بما يتنافى معها وينقضها .

وشهادة ـ **أن لا إله إلا الله** ـ تعنى نفى ألوهيـة وبالتالي عبادة كل ما سوى الله ـ عز وجلَّ ـ وإثبات العبادة لله وحده ـ سبحانه وتعالى ـ فهي نفيٌ وإثباتٌ ، وتعنى أن يجمع العبد قلبه وهَمَّهُ وعزمه وإراداته وحركاته على القيام بعبودية الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأداء حقه في السر والعلن ، وأن يبقى مراد العبد هو مراد الله

---

(١) صحيح الجامع .

الشرعي منه ، وتعنى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ أحدٌ في كمال ذاته وصفاته وأفعاله فهو ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ، وأن لا معبود بحق يُتقدم إليه بجميع الشعائر التعبدية غيره ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولا مُشرع للبشر ما يحكمهم سواه ـ جلَّ وعلا ـ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء : ٦٠] ، وكل زعم في كتاب الله باطل (١) .

وتعنى شهودد قيومية الله ـ جلا وعلا ـ فوق عرشه ، يدبر أمر عباده وحده ، فلا خالق ولا رازق ولا معطى ولا مانع ولا محيى ولا مميت ولا مدبر لأمر ملكه ـ ظاهراً وباطناً ـ غيره ـ جلَّ وعلا ـ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بأذنه، ولا يجرى حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه ، وأحاطت بها قدرته،ونفذت بها مشيئته، واقتضتها حكمته . . . ، وكمال هذا التوحيد بأن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً ، بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شيء ،يحب من أحب وما أحب، ويبغض من أبغض وما أبغض، ويوالى من يوالى، ويعادى من يعادى، ويأمر بما يأمر به وينهى عما نهى عنه(٢) .

وشهادة ـ **أن محمداً عبده ورسوله** ـ تعنى التصديق الجازم بالقلب مع النطق باللسان بأنه خاتم رسل الله إلى خلقه ، وتصديقه في كل ما أخبر به عن ربه مما سبق ومما هو آت ، فيما أحلَّ من حلال وحرَّم من حرام ، وأن لا طريق إلى الله ـ عز وجلَّ ـ إلا طريقه ـ ﷺ ـ قال الله عز وجلَّ : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران : ٣١] .

---

(١) كما قال الإمام الشافعي – رحمه الله – .

(٢) مدارج السالكين ـ بتصرف .

قال الشاعر:

وأنـت بـاب الله ، أي امـرىء أتـاه مـن غـيـرك لا يـدخـل

وهي تقتضى أن يحبه المرء أكثر من الناس جميعاً ، بل من ولده ووالده ، بل من نفسه التي بين جنبيه ، وأن ينحاز إلى صفه ويكون جنداً من جنوده ، وكمال ذلك بالتمسك بجميع هديه الظاهر والباطن - ﷺ - والإقتداء به قولاً وعملاً والحذر من مخالفته ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١)﴾ [الأحزاب : ٢١] .

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - في الرسالة :

وقد سنَّ رسول الله - ﷺ - مع كتاب الله ، وسنَّ فيما ليس فيه بعَيْنه نصٌ كتاب ، وكل ما سَنَّ فقد ألزمنا الله اتباعه ، وجعل في اتباعه طاعته وفى العُنُود عن اتباعه معصيتَه التي لم يعذر بها خَلْقاً ، ولم يجعل له من اتباع سُنن رسول الله - ﷺ - مخرجاً لما وصفتُ ، وما سَنَّ رسول الله فيما ليس لله فيه حكمٌ فبحُكْم الله سَنّهُ ، قال الله - تبارك وتعالى -:﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٥٢) **صِرَاطِ اللَّهِ...** ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] ، وقال رسوله - ﷺ -: « **لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ : لاَ أَدْرِي ، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ** » (١) ، وفى هذا ردٌ موجزٌ وشافٍ على المنتسبين إلى الإسلام زوراً وبهتاناً ، وذلك بردهم سُنَّة رسول الله - ﷺ - وما هم إلا أذناب لأسيادهم الكفار - ليلبسوا على جموع المسلمين البسطاء دينهم .

إخواني الكرام :

إن الإنسانية لم تعرف في ماضيها الطويل - ولن تعرف - رجلاً وقَّره الأبطال وكرَّمه العظماء وانطبعت محبته في شغاف القلوب ، كما عرف ذلك في

---

(١) صحيح سُنن أبى داود .

النبي الكريم ـ محمد ـ ﷺ ـ .

لقد كان أصحاب الشجاعة في القتال يحبونه لأنه أشجع منهم حين تحمر الحدق ويشتد البأس ، وكان أصحاب الحذق في السياسة والتدبير يحبونه لأنهم يرونه أكثر منهم مرونة وأرحب أفقاً ، وكان الأجواد الأسخياء يرونه وقد ملك وادياً من الإبل والغنم فما غربت عليه الشمس إلا وهو قد منح وأعطى للطالبين والراغبين .

وكان العُبَّاد يرونه صوَّاماً قوَّاماً ، والزهَّاد يرونه عفيفاً مرفعاً ، وأصحاب البيان واللسان يرونه فصيحاً معرباً .

حتى المعجبون بالقوى المادية كانوا يرونه مصارعاً يهزم العمالقة ، وهكذا ما عرف أحد من العظماء ميزة في نفسه يفخر بها إلا وجد رسول الله ـ ﷺ ـ علي خلق أعرق منها وأرقى .

ولذلك يرفع إليه بصره مثلما يرفع الناس أبصارهم إلي القمم الشواهق التي لا تنال ؛ ودع هذا الجلال الفارع ، وذلك الامتياز الرائع ، فقد كان هذا الرسول الأمين قريباً بسهولة طبعه من كل فرد ... فما يعز مناله علي أرملة ولامسكين .

بل بلغ من اتساع عواطفه وتدفق مشاعره أن كل فرد كان يحس في نفسه أنه آثر الناس عند رسول الله ـ ﷺ ـ وأقربهم إليه ، وأعزهم عليه ...

كالشمس ترسل أشعتها فيستمتع الجميع بها ، ويأخذ كل امرئ حظه من الدفئ والحرارة والمتعة لا يحس بأن أحداً يشاركه فيها أو يزاحمه عليها ...

وكذلك كان محمد ـ ﷺ ـ مع صحابته ، يأوون من نفسه الكبيرة إلي كنف رحيم (١) .

إخواني الكرام :

إن السر الذي تضمنته عقيدة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، الذي غيَّرت

(١) عقيدة المسلم .

به مجرى التاريخ مرات ومرات ، والذي صنعت به الشخصيات العظيمة في الإسلام ، والتي ندر أن يوجد مثلها على مدار التاريخ ، **إنما يكمن في جمالها !** ... **الجمال** : ذلك الشيء الذي لا يُدرك إلا بحاسة القلب ... إنه إحساسُ : كم هو جميل أن يكون المرء مُسلماً ! ... .

فالإله في اللغة معناه ما يَشُوقُ القلب ويأخذ بمجامع الوجدان فيه إلى درجة الانقياد له والخضوع ، وذلك لما يتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب والمخضوع له غاية الخضوع ، لذلك تسكن إليه القلوب حباً وإجلالاً وإنابة وإكراماً وتعظيماً وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً . . . فهي كلمة قلبية وجدانية تدل على الذي أخذ بمجامع القلب حباً وخشية ، فينقاد له المرء ويخضع .

والله هو الاسم العَلَمُ على الذات الإلهية ، وهو الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العُلى ، فـ« **لا إله إلا الله** » تنفى أي إله سوى الله ـ عز وجلَّ ـ في قلب عبده المؤمن ووجدانه ، وفى أفعاله وتصرفاته .

وشهادة أن « **محمد رسول الله** » تتضمن أيضاً أعلى معاني الجمال المتمثل في رسول الله ـ ﷺ ـ صاحب أجمل خلق عرفته البشرية جمعاء وأعظمه ، فهو المثال العملي التطبيقي لتنفيذ توجيهات الله ـ **الجميل** ـ في قرآنه العظيم ، فقد كان الرسول ـ ﷺ ـ قرآناً يمشى على الأرض ، فهو بذلك يُمثل ـ **جمال** ـ دين الله تبارك وتعالى وشرعه ، لذلك جعله الله ـ **الجميل** ـ القدوة ليتاسى به كل من يدخل في هذا الدين ـ الجميل ـ ليصبح ـ **جميلاً** ـ في اعتقاده وفى أخلاقه وتصرفاته [١] .

---

(١) جمالية الدين في جمالية التوحيد ، مجلة البيان ، بتصرف .

أخي الحبيب :

والآن وقد عرفنا القيمة العظيمة لكلمة التوحيد ، وكيف أنها فاقت تسعة وتسعين سجلاً من الذنوب .

نذكر بعض الأشياء التي تتنافى مع هذه الكلمة الطيبة المباركة وتنقضها وتخرج المرء من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر والشرك ... والعياذ بالله :

[١] إنكار وجود الله ـ تبارك وتعالى ـ أو ادعاء الرزق من غيره ـ جلَّ وعلا ـ أو إنكار خلقه وملكه لكل شيء ، أو إسناد الخلق إلى غيره عزوجلَّ ـ كالذين ينسبون الخلق إلى الطبيعة وغيرها ـ هؤلاء الذين لو عرفوا الله حق المعرفة لعرفوا أن هذا الجمال والكمال في الخلق لم يكن إلا من إبداع وصنع الله الخالق الجميل الذي يحب الجمال في كل شيء ـ وكذلك يعد كفراً وردة أن يدعى شخص لنفسه شيئاً من خصائص الربوبية ، كما فعل الفرعون الأحمق بقوله : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ** ﴾ [النازعات : ٢٤] ، وكذلك يُكْفَرُ كل أحمق يُصدقه في هذه الدعوى الحمقاء .

[٢] نفى أي اسم من أسماء الله الحسنى، أو صفة من صفات الجلال والكمال له ـ تبارك وتعالى ـ والثابتة بالقرآن والسُّنَّة ، أو تاويلها بما ينقصها ، أو تعطيلها بما يحدُّ من كمالها المطلق ، كمن يقز بعلم الله ـ تبارك وتعالى ـ ولكن يدَّعى أن الله لا يعلم الجزئيات والتفصيلات ، أو من يشبه صفة من صفات الله ـ تبارك وتعالى ـ بصفات المخلوقين ، فيدّعى مثلاً أن الله عز وجلَّ يسمع كما يسمع الناس ... فربنا ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى:١١] ، ويدخل فيه أيضاً إثبات أية صفة لله ـ تبارك وتعالى ـ نفاها الله عن نفسه أو نفاها عنه رسوله ـ ﷺ ـ كإثبات الولد له ـ سبحانه وتعالى ـ أو البنات ، أو الصاحبة ، أو السِنَة والنوم ... كذلك يُكْفَرُ كل من يثبت لنفسه أو لأي مخلوق آخر شيئاً من صفات الله ـ تبارك وتعالى ـ ويكفرُ كل من يصدّقه

في دعواه هذه ، كمن يقول أنا أعلم كعلم الله، أو أن فلاناً عنده من الحكمة كما عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيكفر القائل بهذا ويكفر من يصدقه في زعمه هذا .

[٣] كل قول أو فعل أو اعتقاد يتضمن الطعن في استحقاق الله ـ تبارك وتعالى ـ وحده العبادة بكل أنواعها: من الخضوع والتذلل والانقياد والطاعة ، أو القول أن غير الله ـ عز وجلَّ ـ يستحق أي شيء من هذه العبادة ، فيكفرُ من طعن في ذلك ويكفرُ من ادّعى أنه يستحق أن يتوجه إليه بالعبادة دون الله، وكذلك يكفر من صدَّقه في ذلك،كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ عن طاعة الأحبار والرهبان من دون الله : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾** ﴾ [التوبة : ٣١] ، أو الحب من دون الله ، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، أو الدعاء الذي هو العبادة، كما قال الله ـ عز وجلَّ ـ :﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾** ﴾ [غافر : ٦٠] ، أو الركوع والسجود والصلاة والصوم والذبح والطواف وغيرها ....وكذلك الحكم والتشريع ، فلا يجوز أن يحكم الناس ويُشرع لهم إلا الله ـ عز وجلَّ ـ ، قال الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٤٠] .

[٤] كل قول أو فعل أو اعتقاد يتضمن الطعن أو التكذيب في الرسالة ـ من القرآن أو السُّنَّة المطهرة ـ أو في **المُرسلَ** ـ نبي الله ـ **محمد** ـ ﷺ ـ مثل الطعن في صدق الرسول أو أمانته أو الاستهزاء به أو سبِّه ... فالله العظيم في ذاته وصفاته، والحكيم في أفعاله وفى شرعه ، اختار للبشر المنهج العظيم الحكيم ليسيروا عليه في شئون حياتهم ـ واختار لنا بشراً كاملاً في عظيم أخلاقه ـ ﷺ ليبلغنا عن ربنا هذا المنهج ، وليعيش هو نفسه هذا المنهج أمام الناس ليقتدوا به ، فرسول الله

ـ ﷺ ـ البشر الكامل ، حجة الله على جميع خلقه، قال الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

[٥] **موالاة الكفار وإظهار موافقتهم على دينهم** : فالكفار وعلى تنوعهم لا يعبدون الله ـ عز وجلَّ ـ حق عبادته أو أنهم يشركون معه في العبادة غيره ـ عز وجلَّ ـ هذا زيادة على إنكارهم بعثة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ . . . أو طعنهم فيه ، أو غير ذلك من الأمور المناقضة للإسلام والمضادة لشهادة التوحيد ، وليس هذا فحسب بل يعادون أهل الإسلام أبداً، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ :﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٠] ـ وإن أظهروا خلاف ما يبطنون ـ وهم في سبيل ذلك ينفقون الأموال الطائلة لإخراج المسلمين عن دينهم قال الله ـ عز وجلَّ ـ :﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال :٣٦] ، ولا يكتفون بذلك بل كما أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ عنهم : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة :٢١٧] .

وبناءً على ذلك شدد الله ـ تبارك وتعالى ـ في أكثر من موطن من كتابه العزيز على عدم موالاتهم من دون المؤمنين ـ والموالاة معناها التقرب إليهم وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا، وإظهار موافقتهم على باطلهم ـ فقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ [المائدة :٥١-٥٢] ، وقال أيضاً :

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾[النساء :١٣٨-١٣٩]،وقال ـ سبحانه وتعالى ـ:﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة :٢٢]،وقال أيضاً :﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء : ١٤٠].

ومن جملة ما تقدم ينهى الإسلام عن إكرام الكفار وتقريبهم بسبب كفرهم ـ وخاصة الحكام منهم ـ وينهى كذلك عن معاونتهم على شركهم وظلمهم وكفرهم ، وينهى أيضاً عن استعارة قوانينهم ودساتيرهم ومناهجهم في حكم الأمة وتربية أبنائها،وقد حذر الله ـ عز وجلَّ ـ من ترك بعض حكم الله ـ عز وجلَّ ـ فما بالنا بالكل! ، قال الله جل وعلا : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾ [المائدة :٤٩-٥٠] وينهى أيضاً عن القتال في صفهم ، والتجسس من أجلهم ونقل أسرار الأمة وعورات المسلمين إليهم ، وينهى أيضاً عن تحسين أفكارهم ومناهجهم وقيمهم وتصوراتهم والدعوة إليها ـ ذلك أنها وليدة الأهواء والمصالح الشخصية ـ عكس شريعة الله العليم بما يصلح خلقه ، الخبير بشؤونهم وذواتهم .

وينهى الإسلام بشدة كذلك عن مشاورتهم في الأمور الهامة واتخاذهم بطانة ووزراء من دون المؤمنين ، ونهى أيضاً عن معاونتهم والتخطيط معهم وتنفيذ

مخططاتهم ، والدخول في تنظيماتهم وأحلافهم ـ اللهم إلا إذا أمن جانبهم وترجحت مصلحة المسلمين ـ ونهى أيضاً عن توليتهم المراكز الهامة وخاصة في الجيش والمرافق العامة ، وعن استئمانهم ـ كيف وقد خونهم خالقهم جلَّ وعلا ـ بل وعن التشبه بهم وبأعمالهم وعاداتهم وتقاليدهم .

[٦] **الاستهزاء بأي شيء معلوم من دين الإسلام بالضرورة** : ويشمل هذا الاستهزاء **بالله** ـ جلَّ وعلا ـ أو برسوله **محمد** ـ ﷺ ـ **أو أي رسول** من رسل الله ـ تبارك وتعالى ـ ثبتت نبوته مثل إبراهيم وموسى وعيسى و . . . فنحن المسلمين ﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ ونقول لربنا ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٥]، أو الاستهزاء **بأي من كتب الله** تبارك وتعالى من القرآن والإنجيل والزبور . . . أو الاستهزاء **بالمؤمنين** بسبب إيمانهم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾** ﴾ [التوبة : ٦٥-٦٦] ؛ وصور هذا الاستهزاء كثيرة جداً لكن يجمعها جميعاً دلالتها على عدم الرضا بدين الإسلام والاستخفاف به أو بأي شيء منه أو بأهله ، وقد يكون هذا كلاماً أو فعلاً أو . . .

[٧] **ظهور الغضب والكراهية عند ذكر الله أو ذكر رسوله أو تلاوة كتابه أو ذكر شيء من أمور الدين المعروفة** ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾ [الحج : ٧٢] ، وقال : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾** ﴾ [محمد : ٩] [١] .

وخلاصة هذه الأشياء المنافية لكلمة التوحيد والتي تُخرج من ملة الإسلام الحنيف ترجع إلى **خلو قلب صاحبها من حب الله وتوقيره** ، وهو مُنزل الكتب ومُرسل الرسل ؛ فما أخسر صاحب هذا القلب وأشقاه في الدنيا والآخرة ! .

---

(١) الإيمان : اركانه ، حقيقته ، نواقضه ـ بتصرف .

الإحسان

الإحسان يطلق ويراد به معنيان :

الأول : إحسان العبد في نفسه باستحضار عظمة الله وجلاله ومراقبته والإخلاص له عزوجلً : وتيقن العبد بإطلاع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على ظاهره وباطنه ، كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين ، فيثمر ذلك الإتقان في آداء **العبادة** التي هي : اسم جامع لكل ما يحبه الله ـ عز وجلً ـ ويرضاه من أقوال وأعمال العباد الظاهرة والباطنة مما أمرهم به الله في كتابه على لسان رسوله ـ ﷺ ـ مثل شهادة التوحيد ، إقامة الصلاة ، إيتاء الزكاة ، صوم رمضان ، حج البيت ، آداء الأمانة ، بر الوالدين ، صلة الأرحام ، الوفاء بالعهد ، الجهاد في سبيل الله ، الإحسان إلى الناس ، دعاء الله وذكره والاستعانة به وحده والإستقامة على أمره ، عمل المرء في مهنتهِ، وفى بيته ، وقيامه ، ونومه... وغير ذلك من جميع أعمال الجوارح.

وكذلك حب الله وحب رسوله ـ ﷺ ـ وحب المؤمنين، وخشية الله ، والإنابة إليه ، والإخلاص له في السر والعلن ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والتوكل عليه والرجاء لرحمته ..... وغير ذلك من جميع أعمال القلب ..... في كل صغيرة وكبيرة ، في السر والعلن ، في كل الحركات والسكنات ، بل الخطرات واللحظات ..... في كل مكان وزمان .

هذا مع الإقتداء برسول الله ـ ﷺ ـ في كل صغيرة وكبيرة ما استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً .

وهذا هو المقصود من قول رسول الله ـ ﷺ ـ : « ... **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يراكَ... »[١] ، وقوله أيضاً : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »[٢] ، وحين يتوجه العبد إلى الله في جميع أمور حياته التي هي ـ **العبادة** ـ ظاهراً وباطناً بالإحسان فلا شك أنه سيحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة ، فيتوب من كل الذنوب و﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وحينئذ سيتطهر من كل العيوب ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] ، وبهذا الإتقان تنهض الأمم وترقى المجتمعات ، وحينئذ يستقيم الأمر كله في هذه الحياة .

الثاني : النفع المتعدى في جميع نواحي الحياة ، ومع جميع الناس: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ...** »[٣] ، فيحسن العبد لكل من حوله ؛ من والديه وولده وزوجه وقرابته وجيرانه جميعاً ، بل وإلى مجتمعه كله ،كما قَالَ رَسُولُ اللَّه ـ ﷺ ـ : « **مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ ،فَقَالَ: وَاللَّهِ لأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لاَ يُؤْذِيهِمْ ، فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ** »[٤]، بل يحسن للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾** ﴾ [المائدة :١٣] ، بل إلى الكون... كل الكون من حولنا ، من نبات وحيوان بل وجماد ، فيرعى العبد النبات ويعتني به ولا يفسده ... ويرحم الحيوان ويعطف عليه ولا يؤذيه ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **في كل كبد رطبة أجر** »[٥] ، بل قد « **غُفِرَ لامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ** ـ أي بئر ـ **يَلْهَثُ ، قَالَتْ : كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا ، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا ، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ** »[٦] ، وحتى عند ذبح

---

(١) مسلم .
(٢) صحيح الجامع.
(٣) مسلم .
(٤) متفق عليه.
(٥) صحيح الجامع
(٦) البخاري.

الحيوان لأكل لحمه ـ وهو ما أحلَّه الله تبارك وتعالى ـ يحسن إليه، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ... **فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ** » (١) .

والإحسان في العبادة درجتان :

الأولى : درجة الإخلاص ، وهى أن يستحضر العبد أن الله يشاهده ويطَّلع عليه وقريب منه ، فإن فعل ذلك لم يلتفت إلى غير الله وأخلص له ـ جلَّ وعلا ـ في السر والعلن .

والثانية : درجة المشاهدة وهى أن يستحضر العبد كأنه يشاهد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقلبه ، وهى أقل درجة من الأولى (٢) .

والإحسان جزاؤه من الله تبارك وتعالى **في الدنيا** أن يرزق الله عز وجلَّ عبده **الحكمة** ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [البقرة:٢٦٩] ، **والعلم النافع** الموصل إلى تقوى الله ورضوانه ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)** ﴾ [يوسف:٢٢] ، **والذرية الصالحة** ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ :﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)** ﴾ [الأنعام: ٨٤] ، **وهو سبب للنجاة من الزلل** حتى في المواقف الصعبة فـ ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف : ٥٦] كما حدث لنبي الله يوسف ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ عندما راودته امرأة العزيز عن نفسها ، فقال فوراً وبلا تردد ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ** ﴾ **فتحققه في مقام الإحسان** وعبادته لربه ـ عز وجلَّ ـ كأنه يراه لم يدع مجالاً اللهم مطلقاً ـ كيف وهو المطمئن الموقن بأن الله يراه ويعلم سره ونجواه ـ .

---

(١) مسلم.

(٢) جامع العلوم والحكم.

وفي الآخرة المزيد . هذا هو النعيم الذي ليس بعده نعيم . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ [يونس : ٢٦] .

ولقد تلا رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية وأخبرنا أنه « **إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ : يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ، قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ** » [١] ، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللَّذات التي ينعم بها أولياؤه ، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو والقرب منه ، ذلك أنهم أتقنوا وأحكموا فأحسنوا عبادة ربهم ، وأحسنوا معاملة الخلق في الحياة الدنيا ، **فأحسنوا العقيدة وأحسنوا السلوك** .

(١) مسلم .

الصـــــلاة

إن كانت أنواع القربات إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ كثيرة ، والطاعات متنوعة ، فإن الصلاة تأتي على رأسها جميعاً ، فهي خير الأعمال ، قال رسول الله ـ ﷺ : « **استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أنَّ خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن** »(١) ، وإن كان الشارع الحكيم قد أمرنا بالاستقامة ، إلا أنه أخبر أن إحصاء جميع أمور الشرع أمر متعذر « **ولن تحصوا** » ؛ لكن في الحديث لفتة أخرى وهى أن في الصلاة ومقدماتها جبراً لقصور العبد وتقويماً له عمَّا فيه من اعوجاج ، وذلك باشتقاقها من التصلية وهى التقويم .

ومن عِظم مكانتها سمَّاها الله إيماناً فقال ـ جلَّ شأنه ـ : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ﴾ [البقرة :١٤٣] وجعل تركها منافياً له ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ** »(٢)؛ فهي فريضة محكمة دائمة ، لا تسقط في حضر ولا سفر ، ولا سلم ولا حرب ، ولا بحر ولا بر ولا جو ، ولا في صحة ولا في مرض ، وفتح منها الباب لمن أراد المزيد صِلَة بربه ، لاشتقاقها من الصلة ، في أي وقت شاء من الليل أو النهار ، عدا ما استثنى من أوقات الكراهة الثلاثة أو المقبرة .

وهى نور « ..**وَالصَّلَاةُ نُورٌ** .. »(٣) يُنير الله تبارك وتعالى بها لعبده ظلمات الدنيا من الفتن وغيرها وظلمات الآخرة وهى أول ما يسأل عنه العباد يوم القيامة، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر** »(٤)؛ وهي وسيلة القرب من رب الأرض والسماوات ، قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ **وَاسْجُدْ**

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب .
(٢) مسلم .
(٣) مسلم .
(٤) صحيح الترغيب والترهيب .

واقترب ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق : ١٩] ، وقال رسوله ـ ﷺ ـ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ... » [١] .

بل وسيلة لحب الله ـ جل وعلا ـ القائل في الحديث القدسي : « ... وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ،ويده التي يبطش بها ،ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته » [٢]، والقرب منه في الفردوس الأعلى فـ« المرء مع من أحب يوم القيامة »[٣]،بل والقرب أيضاً من رسوله ـ ﷺ ـ « فعن ربيعة بن كعب الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت أبيت مع رسول الله ـ ﷺ ـ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي « سل » فقلت أسألك مرافقتك في الجنة ، قال « أو غير ذلك » قلت هو ذاك ، قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » [٤] .

وإليك ـ أخي الكريم ـ بعض أسباب القرب من الله ـ تبارك وتعالى ـ بالصلاة :

[١] التبكير إلى صلاة الجمعة :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من غسل يوم الجمعة واغتسل ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا إلى الإمام فاستمع ولم يلغ ، كتب له بكل خطوة عمل سنة، أجر صيامها وقيامها » [٥] فلو أن واحداً مشى إلى المسجد مائة خطوة في كل جمعة ، والعام فيه اثنان وخمسون جمعة ، والخطوة الواحدة تعادل سنة صيامها وقيامها ، فالمشي إلى الجمعة في عام واحد يعادل ٥٢٠٠ سنة صيام وقيام ، وفى عشر سنوات ٥٢٠٠٠ سنة صيامها وقيامها ، والله

---

(١) مسلم .

(٢) البخاري .

(٣) البيهقي بسند حسن .

(٤) مسلم .

(٥) صحيح الترغيب والترهيب .

يضاعف لمن يشاء ، وأيضاً « **مَنِ اغْتَسَلَ يومْ الجُمُعة غُسْلَ الجْنابَة ثُمَّ راح فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِى السَّاعَةِ الثَّانية فكَأَنَّما قَرَّبَ بَقرَةً ، وَمَنْ راح فِى السَّاعَةِ الثَّالثة فكَأَنَّما قَرَّبَ كَبْشاً أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِى السَّاعَةِ الرَّابعَة فَكَأَنَّما قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِى السَّاعَةِ الخَامِسَة فكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ** »[١] فيا ترى أخي الكريم كم تكون قيمة البدنة أو البقرة أو . . . .

وليس هذا فحسب، بل خرج عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – إلى صلاة الجمعة فوجد في المسجد ثلاثة قد سبقوه فقال رابع أربعة وما رابع أربعة من الله ببعيد ، إني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ يقول : « **إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله تعالى على قدر رواحهم إلى الجمعات ، الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، وما رابع أربعة من الله ببعيد** »[٢].

[٢] الصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى ومسجد قباء :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه** »[٣] ، و« **الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدي بألف صلاة ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة** »[٤] ، وقال : « **الصلاة في المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة في غيره من المساجد ، ما عدا المسجد الحرام والمسجد النبوي** »[٥]، وقال أيضاً : « **من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه كان له كأجر عمرة** »[٦] .

فصلاة واحدة في المسجد الحرام تعدل صلاة خمس وخمسين سنة وستة اشهر وعشرين ليلة ، أي حوالي ٥٦ سنة ، وصلاة يوم واحد فقط خمس فروض

(١) متفق عليه .
(٢) ابن ماجة وابن عاصم واسنادهما حسن
(٣) صحيح الترغيب والترهيب .
(٤) متفق عليه .
(٥) صحيح الجامع
(٦) الطبراني بسند حسن .

٥٦سنة تعادل ٢٨٠ عاماً في مسجد بلدك ،وصلاة أسبوع كامل فرضاً ٥٥ تعادل ١٤٠٠عام في مسجد بلدك ، ثم نقيس على ذلك الصلاة في المسجد النبوي الشريف والمسجد الأقصى المبارك ، الذي سيحرره الله ـ تبارك وتعالى ـ بأيدي عباده المخلصين كما وعد ، ووعده الحق.

ونحب أن نؤكد على أن هذه المساجد فقط هي التي ورد فيها نصٌ من رسول الله ـ ﷺ ـ بالفضل وليس غيرها، فقد قال: « **لاَ تَشُدُّوا الرِّحَالَ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَة ، مَسَاجِدَ مَسْجِدى هَذَا ، وَالْمَسْجِد الْحَرَام ، وَالْمَسْجِد الأَقْصَى** »(١) ، وورد بلفظ : « **إِنَّمَا يُسَافَرُ إِلَى ثَلاَثَة مَسَاجِدَ ، مَسْجِد الْكَعْبَة ، وَمَسْجِدى ، وَمَسْجِد إِيلِيَاءَ** »(٢) ، فهذه شريعة ربنا وسُنَّة نبينا فـ « **مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ** »(٣) .

[٣] الإكثار من الفرائض في المساجد ومن النوافل في البيوت :

عن صلاة الفرائض في المساجد يقول رسول الله ـ ﷺ : « **أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِه الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِه الدَّرَجَات ، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه ، قَالَ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِه ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِد ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَة بَعْدَ الصَّلاَة ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ** »(٤) ، و « **صَلاَةُ الْجَمَاعَة أَفْضَلُ مِنْ صَلاَةِ الْفَذِّ ـ أي الفرد ـ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً** »(٥) ، و« **صَلاَةُ الرَّجُلِ فِى الْجَمَاعَة تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِه فِى بَيْتِه وَفِى سُوقِه خَمْساً وَعِشْرِينَ ضِعْفاً ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِد لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلاَئِكَةُ تُصَلِّى عَلَيْه مَا دَامَ فِى مُصَلاَّهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْه ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، وَلاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِى صَلاَةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاَةَ** »(٦) ، و« عَنْ أُبَىِّ بْنِ

---

(١) متفق عليه . (٢) مسلم . (٣) متفق عليه .
(٤) مسلم . (٥) متفق عليه . (٦) متفق عليه .

كَعْب ـ رضي الله عنه ـ قَالَ : كَانَ رَجُلٌ لاَ أَعْلَمُ رَجُلاً أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ وَكَانَ لاَ تُخْطِئُهُ صَلاَةٌ ، فَقِيلَ لَهُ أَوْ قُلْتُ لَهُ : لَوِاشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ وَفِي الرَّمْضَاءِ ، قَالَ : مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ : «قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ» (١) .

وقَالَ رَسُولُ اللَّه ـ ﷺ : « إِنَّ أَثْقَلَ صَلاَةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلاَةُ الْعِشَاءِ وَصَلاَةُ الْفَجْرِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لاَ يَشْهَدُونَ الصَّلاَةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ » (٢) ، هذا مع أنه « مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ » (٣) ، وليس هذا فحسب بل من صلى الفجر في جماعة فهو في كنف الله ـ جلَّ وعلا ـ وحمايته فـ« مَنْ صَلَّى صَلاَةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ ، فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ ثُمَّ يَكُبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » (٤) ، و« من صلى الفجر في جماعة ، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة » (٥) ، و« من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم ، ومن خرج إلى تسبيح ـ صلاة ـ الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر ، وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين » (٦) .

وقَالَ رَسُولُ اللَّه ـ ﷺ ـ : « مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » (٧) ، بل إنه

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) مسلم .

(٥) ، (٦) صحيح الجامع .

(٧) متفق عليه .

لن يدخل النار ابتداءً « **لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** »(١) ، يَعْنِي الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ ؛ هذا مع الثواب المضاعف « فعَنْ أَبِى بَصْرَةَ الغفارىِّ قَالَ : صَلَّى بنا رَسُولُ اللَّه ـ ﷺ ـ الْعَصْرَ بِالْمُخَمَّص فَقَالَ : **إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا ، فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ** . . . »(٢) .

وانظر ـ أخي الكريم ـ إلى فضل الله العظيم ـ وهو الغني عن جميع خلقه وبل وعن عباداتهم إيَّاه كيف يحتفي سبحانه ـ جلَّ وعلا ـ بعبيده ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله له من حين يخرج من بيته كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم** »(٣) ، وقال أيضاً : « **مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا ، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا ، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِى لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ، فَلاَ تُخْفِرُوا اللَّهَ فِى ذِمَّتِهِ** »(٤) .

وزيادة على هذا الفضل العظيم وبالخروج مبكراً قليلاً لإدراك تكبيرة الإحرام والصف الأول أو الأذان للصلاة « **من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى ، كتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق** »(٥) ، و« **لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ ما في النِّداءِ** ـ أي الآذان ـ **والصَّفِّ الأَوَلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيهِ لاسْتَهموا عَلَيْهِ ، ولوْ يَعْلَمُونَ ما في التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا في العَتَمَةِ والصُّبْحِ لأتوهُمَا وَلَوْ حبواً** »(٦) ، و« **إن الله وملائكته يصلون على الصف المقدم** . . . »(٧) .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **المؤذن يغفر له مد صوته وأجره مثل أجر من صلى معه** »(٨)، و« **كان ـ ﷺ ـ يستغفر للصف المقدم ثلاثاً وللثاني مرة** »(٩) ، وينبغي على المؤمنين أن يتراصوا ويصطفوا في الصف تشبهاً بالملائكة الكرام ؛

---

(١) مسلم . (٢) مسلم (٣) صحيح الجامع .
(٤) البخاري. (٥) صحيح الجامع . (٦) متفق عليه .
(٧) صحيح الجامع . (٨) صحيح الجامع . (٩) صحيح الجامع .

لقول رسول الله ـ ﷺ ـ :« . . . **أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا قَالَ : يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ** »(١) ، ومن وقف في الصف فوجد فرجة فسدها ، صلَّ الله عليه ، ورفعه بها درجة ، وبنى له بيتاً في الجنة فـ« **إن الله تعالى وملائكته يصلُّون على الذين يَصِلُون الصفوف ،ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة** »(٢) ، و« **من سد فرجة رفعه الله بها درجة ، وبنى له بيتاً في الجنة** »(٣) .

وكان عديُّ بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ يستعد للصلاة قبل الأذان ويقول: ما دخل وقت صلاة حتى أشتاق إليها، وما أقيمت منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء ، وقال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله : ما فاتتنى تكبيرة الإحرام وما نظرت في قفا رجل منذ خمسين سنة،كناية عن مبادرته إلى الصلاة والصف الأول، وكان سليمان بن مهران الأعمش ـ رحمه الله ـ قريباً من سبعين سنة ، لم تفته تكبيرة الإحرام .

وعن صلاة النوافل في البيوت : قال رسول الله ـ ﷺ « . . . **فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ ، فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلاَةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ ، إِلاَّ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ** »(٤) ، وقال أيضاً : « **صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس خمساً وعشرين** »(٥) .

وهناك سُنن رواتب مرتبطة بصلاة الفريضة ، قبلها أو بعدها ، كان يحافظ عليهن رسول الله ـ ﷺ ـ فقال عنهن : « **مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوعاً غَيْرَ الفَرِيضَةِ إِلاَّ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ** »(٦) ، وعَنْ عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « **كَانَ النبيُّ ـ ﷺ ـ يُصَلِّي فِي بَيْتِي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعاً ثم يخْرُجُ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ ثُمَّ يدخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، وَكَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ المَغْرِبَ ثُمَّ يَدْخُلُ بيتي فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، وَيُصَلِّي بِالنَّاسِ العِشَاءَ وَيدْخُلُ بَيْتِي**

---

(١) مسلم . (٢) صحيح الجامع . (٣) صحيح الترغيب والترهيب .
(٤) متفق عليه . (٥) صحيح الجامع . (٦) مسلم .

فَيُصلِّيَ ركْعَتَيْنِ »^(١)^ ، وعنها أيضاً : «**أنَّ النَّبيَّ ـ ﷺ ـ كانَ لا يدَعُ أرْبعاً قَبْلَ الظُّهْرِ ، ورَكْعَتَيْنِ قبْلَ الغَدَاةِ** »^(٢)^ ، و« **كان إذا فاته الأربع قبل الظهر صلاها** (بعد الركعتين) **بعد الظهـر** »^(٣)^ ، وما بين قوسين ضعفه الألباني ـ رحمه الله ـ ؛ وذكر رسول الله ـ ﷺ ـ فضلهن فقال : « **أربع ركعات قبل الظهر يعدلن بصلاة السَّحر** »^(٤)^ .

وقد يؤدى الإكثار من النوافل بفضل الله ـ جلَّ وعلا ـ إلى مرافقة النبي ـ ﷺ ـ في الجنة ، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ وهو من أهل الصُّفة وخادم رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِه ـ ما يتوضأ به ـ وَحَاجَته فَقَالَ لِي « **سَلْ** » فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّة قَالَ : « **أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ** » قُلْتُ هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : « **فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ** »^(٥)^ ؛ ويُروى أن الإمام أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ كان يصلي في كل يوم وليلة ثلاث مائة ركعة ، فلما مرض كان يصلي مائة وخمسين ركعة^(٦)^ .

وصلاة النوافل في البيت أفضل من صلاتها في المسجد الحرام والمسجد النبوي لأن النبي ـ ﷺ ـ قال هذا الحديث المتقدم وهو بالمدينة المنورة وكان يحافظ على صلاة النافلة في بيته وما كان يخرج إلى مسجده إلا لأداء الفرائض مع قرب بيته من مسجده^(٧)^؛ هذا باستثناء المعتكف في المسجد ، والمبكر لصلاة الجمعة ، والخائف من فوات وقت النافلة ، أو الخائف من دخول الكسل عليه ، أو لمن يجلس لتعليم أو تعلم العلم ، أو لمريد السفر ، وفي غير الصلوات النوافل التي تُسنّ فيها الجماعة كصلاة الاستسقاء والعيدين والكسوفين وركعتي الطواف وتحية المسجد^(٨)^ .

وصلاة الضحى تعدل التصدق بثلاث مائة وستون صدقة ، قال رسول الله

---

(١) مسلم . (٢) البخاري . (٣) صحيح الجامع .
(٤) السلسلة الصحيحة . (٥) مسلم . (٦) صفة الصفوة .
(٧) سُبل السلام . (٨) من فتاوى ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ .

ـ ﷺ ـ : « **في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، عليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة**، قالوا: فمن الذي يطيق يا رسول الله، **قال: النخامة في المسجد يدفنها، أو الشيء ينحيه عن الطريق، فإن لم يقدر فركعتا الضحى تجزيء عنه** »(١).

وقال أيضاً : « **مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ**، قِيلَ وَمَا الْقِيرَاطَانِ قَالَ: **مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ** »(٢)، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ يُصَلِّي عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَلَمَّا بَلَغَهُ هذا الحديث قَالَ : لَقَدْ ضَيَّعْنَا قَرَارِيطَ كَثِيرَةً ! .

[٤] قيام الليل :

أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ به نبيه ـ محمداً ـ صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً ـ فقال : ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** (٧٩) ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، وهذا الأمر وإن كان خاصاً برسول الله ـ ﷺ ـ إلا أن عموم المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالإقتداء به(٣) ؛ وأخفى الله ثواب القائمين لعظمه ؛ فقال : ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٧) ﴾ [السجدة : ١٧] .

وَاستجاب نبينا محمد ـ ﷺ ـ لأمر ربه، فقام من الليل ورغَّب أمته فيه لعظيم فضله فقال : « **أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ** »(٤)، بل إنه ـ ﷺ ـ « **كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ**، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، **قَالَ : أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْداً شَكُوراً** »(٥)، و« **كان لا يدع قيام الليل، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً** »(٦)، وأخبر

---

(١) صحيح الجامع . (٢) متفق عليه . (٣) فقه السُّنَّة .
(٤) مسلم . (٥) متفق عليه . (٦) صحيح الجامع .

أن « من صلى قائماً فهو أفضل ، ومن صلى قاعداً فله نصف أجر القائم ، ومن صلى نائماً فله نصف أجر القاعد »[١]، و« ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ ، قَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ »[٢] ، وأخبر برحمة الله وفضله على عباده أنه « مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ »[٣] .

ويتأكد فضله في رمضان عامة وفي ليلة القدر خاصة فـ « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[٤]، وقال الله تبارك وتعالى :﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ ﴾[القدر : ٣] ، فالعمل الصالح فيها يزيد على ألف شهر أي ما يزيد على ٨٣ عامًا ، وفي قيام رمضان « إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة »[٥] أي صلى مع الإمام قيام الليل حتى ينتهي من صلاته .

و« من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعاً كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات »[٦]، و« من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة »[٧] أي عبادتها؛و« من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »[٨] ، هذا بالإضافة إلى الغرف فـ « إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام »[٩] .

وإليك ـ أخي الحبيب ـ بعض الوصايا النافعة لقيام الليل؛وقد أمرنا بالأخذ بالأسباب :

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ:﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ... ﴾[التوبة : ٤٦] .

[١] قلة الذنوب طوال النهار، فهي سبب كل شؤم ؛ والتقلل من الطعام

---

(١) صحيح الجامع . (٢) متفق عليه .

(٣) مسلم . (٤) متفق عليه .

(٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) ، (٩) صحيح الجامع .

والشراب قبل النوم مع الاستعانة بنوم القيلولة، قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ ما ترك أحد قيام ليلة إلا بذنب، تفقدوا أنفسكم كل ليلة عند الغروب وتوبوا إلى ربكم لتقوموا .

[٢] النوم مبكراً على طهارة والإتيان بأذكار النوم وسننه قبله ، مع العزم على القيام وصدق النية والإخلاص لله ـ تبارك وتعالى ـ .

[٣] دعاء الله ـ عز وجلّ ـ ، فدعاء الله من أعظم أسباب التوفيق في كل شيء ، وليس للقيام فقط .

[٤] التواصي مع الأهل والإخوان والصالحين بإيقاظ بعضهم بعضًا ، حتى لو وصل إلى نضح الماء في وجه النائم ، فهذا من التعاون والتواصي المندوب إليه .

[٥] استخدام وسائل التنبيه بأنواعها .

[٦] ذكر الله عند الاستيقاظ مباشرة ، مع الهمة الشديدة عند الاستيقاظ فيقوم مباشرة وليس على مراحل ، ثم الوضوء فالصلاة .

[٧] حفظ القرآن الكريم ، فالذي يقرأ القرآن الكريم من المصحف لا يشعر باللذة التي يشعر بها من يقرأه من صدره ، فلذلك يتكاسل عن قيام الليل .

الخشوع في الصلاة :

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ :﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)** ﴾ [المؤمنون : ١-٢٢] ،وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ،**

سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها [١] ، ولذا قرر عبد الله ابن عباس - رضي الله عنهما - هذه الحقيقة فقال : ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها .

قال حسان بن عطية - رحمه الله :

إن الرجلين ليكونا في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله - عز وجلَّ - ، والآخر ساهٍ غافل ، فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب لم يكن إقبالاً ولا تقريباً - فما الظن بالخالق - عز وجلَّ - ؟ - وإذا أقبل على الخالق - عز وجلَّ - وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس والنفس مشغوفة بها ملأى منها فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار وذهبت به كل مذهب [٢] .

وإن كان إقامة الصلاة معناه توفيتها حدودها والمداومة عليها والتوجه الكلي فيها إلى الله بالخشوع التام فيها ، والامتناع بها عن الفحشاء والمنكر ، ولا يسهو عنها بتأخيرها إلى أخر وقتها دائماً أو غالباً أو لا يؤديها بأركانها وشروطها على الوجه المامور به أو لا يخشع فيها ويتدبر لمعانيها ، **فوضح من ذلك أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل** ، هذا وكيف بمن يهجرها كُلِّيَّة ! .

والصلاة مع عدم الخشوع فيها لا يعتد فيها إلا بما عقل العبد منها وخشع فيها لربه . . . . فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، وليس من العمل الطيب صلاة لا روح فيها ، فتعطيل القلب عن عبودية الخشوع تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته وعزل له عنها- فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها وقد عزل ملكها وتعطل - فالأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده فإذا لم يكن قائماً بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها . . . . وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوساوس فأنى تصح عبودية رعيته وجنده ،ومادتهم منه وعن أمره يصدرون وبه يأتمرون، **وإذا كان الله - عز وجلَّ - لا يقبل الدعاء من قلب غافل فكيف يقبل الصلاة من قلب ساه .**

---

(١) صحيح الجامع .
(٢) الوابل الصيب .

وإذا كانت طهارة الثوب والبدن شرطاً في صحة الصلاة والاعتداد بها فإذا أخلَّ بها كانت فاسدة ، فكيف إذا كان القلب نجساً ولم يطهره صاحبه فكيف يعتد له بصلاته ، وإن أسقطت القضاء ! ، وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن ، وإن كان استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها وهي بيت الرب ـ جلَّ وعلا ـ فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط ، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن ! بل وجَّه بدنه إلى البيت ووجَّه قلبه إلى غير رب البيت .

وللصلاة مع الخشوع مزيد ثواب عاجل في القلب ، من قوة إيمانه ، واستنارته وانشراحه وانفساحه ، ووجود حلاوة العبادة والفرح والسرور واللذة التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله وحضر قلبه بين يديه،كما يحصل لمن قرَّبه السلطان منه وخصَّه بمناجاته والإقبال علي ه، والله أعلم وأجلّ . . . وفى الآخرة الدرجات العلى ومرافقة المقربين والقرب من الله رب العالمين ومن رسوله محمد ـ ﷺ ـ.

وللناس في الصلاة خمس مراتب :

أحدها : مرتبة الظالم لنفسه المفرط وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها .

الثاني : من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها لكن قد ضيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث : من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته ، فهو في صلاة وجهاد .

الرابع :من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها ، بل همه إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها،قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه ـ تبارك وتعالى ـ فيها .

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ـ عز وجلَّ ـ ناظراً بقلبه إليه مراقباً له ممتلئاً من محبته

وعظمته كأنه يراه ويشاهده ، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه ، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض ، وهذا في صلاته مشغول بربه ـ عز وجلَّ ـ قرير العين به .

فالأول معاقب ، **والثاني** محاسب ، **والثالث** مكفر عنه ، **والرابع** مثاب ، **والخامس** مقرب من ربه ، لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه في الصلاة ـ ﷺ ـ فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه ـ عز وجلَّ ـ في الآخرة ، وقرت عينه أيضاً به في الدنيا ـ ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين ـ ومن لم تقر عينه بالله ـ تعالى ـ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات [١] .

ولكي نخشع في صلاتنا إليك أخي الحبيب بعض الوصايا النافعة :

[١] الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت بحوالى عشر أو خمس عشرة دقيقة بالوضوء وقراءة القرآن في المسجد ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ** ، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : **إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ** » [٢] .

[٢] المشي إلى المسجد في سكينة ووقار ... وعدم الإسراع ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إذا أتيت الصلاة فأتها بوقار وسكينة فصلِّ ما أدركت واقض ما فاتك** » [٣] ، و« **التأني من الله والعجلة من الشيطان** » [٤] ، والشيطان ـ لعنه الله ـ لا يأتي بخير أبداً .

[٣] صلاة الفرائض في المسجد وراء إمام حسن الصوت خاشع لله ، ففي الحديث « **إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله** » [٥] ، وصلاة النوافل في البيوت في مكان هادىء خافت الضوء ليس

---

(١) الوابل الصيب ـ بتصرف .
(٢) مسلم .
(٣) ، (٤) ، (٥) صحيح الجامع .

به تصاوير ولا أية مشوشات تشغل السمع والبصر ونجعله **مسجد البيت** .

[٤] قراءة القرآن بالترتيل وتحسين الصوت مع تدبر الآيات والتفاعل مع القرآن، ولك ـ أخي الكريم ـ أن تتصور كيف تكون لذة قلب المصلى وخشوعه وسرور نفسه وقرة عينه حين يناجى ربه ـ سبحانه وتعالى ـ فيجيبه كلما قرأ شيئاً من الفاتحة « **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ الْحَمْدُ لِلّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : حَمِدَنِي عَبْدِى ، وَإِذَا قَالَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِى ، وَإِذَا قَالَ مَالِك يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ : مَجَّدَنِي عَبْدِى** ـ وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِى ـ **فَإِذَا قَالَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ، قَالَ : هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ** » (١) ، وهكذا مع باق الآيات بعد الفاتحة . . .

[٥] طول قراءة القرآن في الصلاة فـ « **أفضل الصلاة طول القنوت** » (٢) ، مع حضور القلب ، بأن يفرغ قلبه من كل ما عدا الصلاة ، فيقضى كل ما يشغله قبل الصلاة من أكل وشرب وخلاء وغير ذلك ، ويجدد على نفسه ذكر الآخرة وخطر القيام بين يدي الله ـ عز وجلَّ ـ.

[٦] الصلاة صلاة مودع للدنيا، واليقين بلقاء الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** (٤٥) **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** (٤٦) ﴾ [البقرة : ٤٥-٤٦] .

[٧] كثرة ذكر الله طول النهار ، فذكر الله يورث المحبة التي هي روح الإسلام ومدار السعادة والنجاة ، وقد جعل الله لكل شيء سبباً ، وجعل سبب المحبة دوام

(١) مسلم .

(٢) صحيح الجامع .

الذكر، والمحب لابد خاشع بين يدي سيده ، والذكر يورث المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه ، ويورث القرب من الله ـ فعلى قدر ذكر الله ـ عز وجلَّ ـ يكون قرب العبد منه ،وعلى قدر غفلته يكون بعده منه ـ وهو يورث الهيبة لله ـ عز وجلَّ ـ وإجلاله لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله ـ تبارك وتعالى ـ بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه ، كما أنه يورث ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ للعبد كما قال الله ـ جلَّ وعلا ـ :﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** (١٥٢) ﴾ [البقرة : ١٥٢] ويورث حياة القلب فيخشع ، ويجلى صدأ القلب ، ويزيل الوحشة بين العبد وبين ربه ـ تبارك وتعالى ـ .

وهو سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل ، فإن العبد لابد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، ولا سبيل إلى السلامة منها ألبتة إلا بذكر الله تعالى ، والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عوَّد لسانه ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو ، والذكر يحط الخطايا ويذهبها ، فالذكر من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات ، والسيئات تمنع الخشوع .

وهو سبب تنزيل السكينة ، وغشيان الرحمة ، وحفوف الملائكة بالذاكر ،كما أخبر به النبي ـ ﷺ ـ والذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة ، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق كقوله ـ تبارك وتعالى ـ :﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** (١٢٨) ﴾ [النحل:١٢٨]،وقوله ـ جلَّ شأنه ـ :﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] ، وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر كما قَالَ اللَّهُ ـ تبارك وتَعَالَى ـ في الحديث القدسي : «**أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»(١) ، ومن كان الله معه خشع قلبه .

(١) البخاري .

وفي القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى ، وذكر الله عز وجلَّ من أكبر العون على طاعته ؛ فإنه يحببها إلى العبد ويسهلها عليه ويلذذها ويجعل قرة عينه فيها ونعيمه وسروره بها ، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل [١] ، « وَكَانَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِه » [٢] .

[٨] ومنها الاستعاذة بالله من شيطان الصلاة ـ خِنزب ـ لعنه الله .

(١) الوابل الصيب ـ بتصرف .

(٢) متفق عليه .

الإنفاق في سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة : ٢٦١] ؛ والإنفاق في سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ يشمل : الزكاة الواجبة ، ويشمل مطلق الإنفاق .

وجعل الله ـ تبارك وتعالى ـ إيتاء الزكاة ركناً من أركان الإسلام الخمسة التي يقوم عليها ، ولم يكن الهدف منها جمع المال وإغناء خزانة الدولة المسلمة لتقيم المشروعات النافعة لمواطنيها ومساعدة الضعفاء وذوى الحاجة وإقالة عثراتهم فحسب ، بل الهدف الرئيسي هو أن يعلو بالإنسان على المادة ويكون سيداً لها لا عبداً . . .فبإنفاقه يعلو وينتصرعلى شح نفسه الفطري،قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء :١٠٠] ، فيفلح وتطهر نفسه وتزكو ، وينمو ماله ويُبارك فيه، لأن المنفق شاكر لنعمة الله عليه بالمال، وقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] والمنفق متخلق بصفة من صفات الله ـ تبارك وتعالى ـ وهى الكرم وذلك بإفاضة الخير والجود والرحمة والإحسان على الناس وتفريج كربهم ،وذلك دون النظر إلى نفع يعود عليه منهم ، ولو كان هذا النفع مجرد كلمة شكر ، بل كل ذلك ابتغاء ثواب الله ـ تبارك وتعالى ـ وفضله وجوده .

والعبد المنفق ابتغاء وجه الله ـ تبارك وتعالى ـ لا ينبغي له أن يكون في نفقته أي نوع من إذلال الآخذ ، بل لربما شكره بقبوله عطيته هذه التي هي في الحقيقة فضل من الله ـ تبارك وتعالى ـ عليه وسببٌ في تخلصه من شح نفسه وفى طهارتها وتزكيتها . . . بل هى سببٌ في حب ربه ومولاه ـ جلَّ وعلا ـ له

فـ ﴿اللهُ يُحبُّ المُحْسنين﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، وبفعنه هذا يُشيع جوٌ من الحب بين أفراد مجتمعه الذي يحيا فيه ، فيصبح هذا المجتمع كالبنيان الواحد المرصوص المتكامل ، فلا حسد ولا بغضاء بينهم - بل يحب بعضهم بعضاً ويدعو بعضهم لبعض فـ« ...المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ ..» [١] - بل ويزداد حبهم لدينهم الإسلام ولربهم بما تفضل به عليهم بهدايتهم لهذا الدين العظيم .

[١] الزكاة :

قال الله - تبارك وتعالى - :﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف :١٥٦] ؛ « وجاء رجل من قضاعة إلى رسول الله - ﷺ - فقال: إني شهدت أن لا اله إلا الله وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس،وصمت رمضان وقمته، وأتيت الزكاة، فقال رسول الله - ﷺ - : « **من مات على هذا كان من الصديقين و الشهداء** » [٢]؛ و« **العامل على الصدقة بالحق لوجه الله - تعالى - كالغازي في سبيل الله - عز وجلَّ - حتى يرجع إلى أهله** » [٣] .

[٢] مطلق الإنفاق :

قال رسول الله - ﷺ - : « **مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً في سبيلِ اللّه كُتبَ لَهُ سبْعُمائة ضعف** »[٤] ، وليس هذا فحسب بل « **مَنْ تَصَدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلاَ يَقْبَلُ اللّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ - وإِنَّ اللّهَ يَتَقَبَّلُهَا بيَمينِه ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ** »[٥] ، وقال : « **رب درهم سبق مائة ألف درهم** ، فقال رجل وكيف ذلك يا رسول الله ، **قال : رجل له مال كثير أخذ مائة ألف درهم فتصدق بها ، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما**

---

(١) متفق عليه .
(٢) صحيح الترغيب والترهيب .
(٣) صحيح سُنن أبي داود .
(٤) الترمذي وحسنه .
(٥) متفق عليه .

فتصدق به »[١] ؛ ومنه كفالة اليتيم « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِى الْجَنَّةِ هَكَذَا » ، وَقَالَ: بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى »[٢] ، وكافل اليتيم : القائم بأموره من نفقة وكسوة وتأديب وتربية ، وغير ذلك .

و« السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ـ وَأَحْسِبُهُ قَالَ ـ وَكَالْقَائِمِ لاَ يَفْتُرُ ، وَكَالصَّائِمِ لاَ يُفْطِرُ »[٣] ، و « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ ـ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ ـ »[٤] وعند الترمذي « من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين ، وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها » ، وعند ابن حبان « من عال ابنتين أو ثلاثاً أو أختين أو ثلاثاً حتى يبن أو يموت عنهن كنت أنا وهو في الجنة كهاتين،وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها» .

و« كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِى رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِى كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ »[٥] . و« مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا »[٦] .

وينبغي على المنفق أن يُسرَّ بصدقته، لكونه أبعد عن الرياء وفى الإظهار إذلال للفقير أيضاً، إلا أن ينوى اقتداء غيره به فينبغي الاجتهاد في إخلاص النية لله ـ تبارك وتعالى ـ ولا يفسدها بالمنِّ والأذى ولا باحتقار الفقير ـ فالفضل ليس بالمال ولا النقص بعدمه، وأن يستصغر العطية، وأن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ :﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾[البقرة:٢٦٧]،وقال جلَّ شأنه :﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٢]، وأن يعطيها لطالب العلم ، والأقرب رحماً ، وللمحتاج الأتقى ، والأشد حاجة ، والأكثر تعففاً ، وللذي يرى أن الإنعام هو من الله وحده ولا يلتفت إلى الأسباب إلا بقدر ما ندب إليه من شكرها ، فبذلك يعظم أجر الصدقة[٧] .

(١) صحيح سُنن النسائي . (٢) البخاري . (٣) متفق عليه .
(٤) مسلم. (٥) البخاري . (٦) متفق عليه .
(٧) مختصر منهاج القاصدين .

فائدة وبشرى :

أعلم ـ أخي الكريم ـ أن في المال حق لله ـ تبارك وتعالى ـ غير الزكاة بدليل قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ في آية البر ١٧٧ في سورة البقرة ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)** ﴾ يوضحه أيضاً قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ في سورة الذاريات ١٩ ﴿ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)** ﴾ وسورة (المعارج ٢٤ ـ ٢٥) ﴿ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِم حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)** ﴾ فالحق المعلوم في سورة المعارج هو الزكاة ، أما الحق في سورة الذاريات فهو زيادة على الزكاة .

وأبشر ـ أخي المنفق ـ ببشرىٰ رب العالمين القائل في سورة البقرة ٢٧٤ ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)** ﴾ .

فالذين ينفقون أموالهم بجميع أنواعه ... في جميع الأوقات ... وجميع الحالات ... لهم أجرهم مطلقاً عند ربهم ... هكذا ... من مضاعفة المال ... وبركة العمر ... وجزاء الآخرة ... ورضوان الله ... ثم هم لا خوفٌ عليهم ولاحزن من أي مخوف ، في الدنيا والآخرة سواء .

الحـــج والعمـــرة

الحج هو خروج في سبيل الله تجاه الأماكن المقدسة لأداء المناسك على وجه التعظيم لله رب العالمين ، وشوقاً إلى عفوه ـ سبحانه وتعالى ـ وجنته ـ اقتداءً بأنبياء الله جميعاً وآخرهم محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهو عبادة جامعة تشمل روح كل العبادات بصورة أو بأخرى ، وروحه الأصلية هى التقوى ـ كسائر العبادات ـ والتقوى كما قال ربنا ـ جلَّ وعلا ـ هى خير زاد يتزود به المرء في رحلته في هذه الدنيا إلى الله والدار الآخرة ﴿ ... **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ...** ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وفيه انفاق الكثير من المال والوقت،وفيه ترك الأهل والأحباب جميعاً والوطن، بل وفيه ترك كل زينة الحياة الدنيا وتذكر الموت والقدوم على الله عز وجلَّ والرغبة فيما عنده ـ بالدخول في الإحرام وارتداء ملابسه ، ولقول النبيﷺ« **لبيك اللهم لبيك، إنما الخير خير الآخرة** » وعند ابن أبي شيبة « **لبيك، إن العيش عيش الآخرة** » ... وفيه مشقة الجسد حتى أنَّه في حق النساء يعد جهاداً بل « **...أفضلُ الجهادِ...** »[١].

وفيه التضحية والفداء في سبيل الله ـ بذبح الهدى ـ وفيه التصدي لأعداء الله من شياطين الإنس والجن ـ برمي الجمرات ـ وفيه كثرة دعاء الله وذكره ﴿ ... **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ...** ﴾ [البقرة:١٩٨ ـ ٢٠٠] و «**أفضل الحج العج والثج**»[٢]. وفيه تذكر يوم الحشر

---

(١) البخاري . (٢) صحيح الجامع .

والدار والآخرة والوقوف بين يدي الله رب العالمين ـ بالوقوف في عرفات .

وفيه التعلق بالله وحده وقطع الرجاء عما سواه جلَّ وعلا – فلا دعاء إلا له ولا ثقة ولا تفويض ولا توكل إلا عليه تبارك وتعالى – حيث يطوف العبد بالبيت وقد كان البيت ﴿ ... بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ... ﴾ ! [إبراهيم :٣٧] .

وفيه تحقيق التوحيد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ... ﴾ [سورة البقرة ١٩٦] ،وقال أيضاً :﴿ ... **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ... ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وقال رسوله ﷺ : « **اللهم هذه حجة لا رياء فيها ولا سمعة** » السلسلة الصحيحة وقوله ﷺ : « **لبيك إله الحق لبيك** » صحيح الجامع ، وكذا دعائه على الصفا والمروة وغيرها من المشاعر . . . ويوم عرفه « **أفضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير** » السلسلة الصحيحة

وفيه كثرة التضرع والمناجاة لله تبارك وتعالى . . .فلم يفتر نبينا رسول الله ﷺ عن دعاء الله ـ عز وجل ـ طوال حجته . . .منذ خروجه من المدينة المنورة حتى عودته إليها . . . **فالدعاء** هو ركن العبادة الأكبر لدلالته على الإقبال على الله ـ عز وجل ـ والإعراض عما سواه وإظهار الافتقار والاحتياج إليه والانكسار بين يديه ـ عز وجل ـ وحده فـ« **ليس شيء أكرم على الله من الدعاء** » صحيح الترغيب والترهيب سواء دعاء المسألة والطلب : في طوافه حول البيت العتيق وسعيه بين الصفا والمروة ويوم عرفة وعند المشعر الحرام وأيام منى . . .أو دعاء الثناء والذكر . . .

وأعلم ـ أخي الكريم ـ أن الحج معاهدة بين العبد وربه ـ عز وجل ـ يردد فيه الحاج مرة بعد أخرى «**لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك لبيك ... إن الحمد والنعمة لك والملك ... لا شريك لك** »[1] ،والمعاهدة تقع دائماً في بداية كل أمر ـ وليس في نهايته ! ـ فيفهم من ذلك أن عمل الحاج لا ينتهي بعد

(١) صحيح سُنن أبي داود .

الفراغ من أداء مناسك الحج ... بل يبدأ عمله الحقيقي بعد الانتهاء منها ، فيعود الحاج لرحلة أكثر أهميه ... رحلة صناعة التاريخ من جديد ـ كما فعل أبو الأنبياء إبراهيم وابنه اسماعيل وزوجه هاجر ـ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ـ وكما فعل سيد ولد أدم ـ محمد ـ ﷺ ـ رحله اخراج الناس من ظلمات الشرك والإلحاد بالله في كل صورة ، ومن ظلم العباد بعضهم لبعض ... إلى نور التوحيد وإسلام الوجه لله ـ جلَّ وعلا ـ ، وإلى العدل مع الناس ... كل الناس .

ويعود الحاج ـ بعد ما يعود ـ من مقام العهد مع الله عز وجلَّ إلى مقام العمل لتنفيذ هذا العهد فتزداد مسئولياته وتكبر ... فيعزم ويخطط، ويعمل على إعادة الحنيفية السمحة ـ ملَّه أبيه إبراهيم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ إلى وجه الأرض ... كل الأرض ... مهما كلفه ذلك من تضحيات ... بالمال ... والنفس ... والولد وكل ما يملك ـ كما رأى وشاهد الرموز الدالة على ذلك في المناسك من فعل إبراهيم واسماعيل وهاجر ، بل ومن فعل خاتم الأنبياء ـ محمد ـ عليهم جميعاً الصلاة والسلام ـ ويبقى هذا دأبه ... ويصير على هذا الدرب إلى أن تحين منيته ... أو أن يصل إلى هدفه المنشود، **وهذا من بر الحج** .

ويعود الحاج بعد ما يعود فيصبح جندياً من جنود الله تبارك وتعالى منضبطاً يسمع ويطيع ـ كما تعلم ذلك خلال رحلة الحج ـ يبلغ دعوته في الآفاق استجابة لقول رسوله ـ ﷺ ـ في حجة الوداع « **فلْيُبلغ الشاهدُ الغائبَ ، فإنه رُبَّ مبلَّغٍ يبلِّغهُ من هو أوعى له** ... »[1] متذكراً أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان قد توفى بعد حوالي شهرين من كلامه هذا ـ فسمع صحابته الكرام ـ رضي الله عنهم ـ هذا الكلام فخرجوا في الآفاق جاعلين رسالة حياتهم هي تبليغ دعوة الله ـ عز وجلَّ ـ إلى الناس ... كل الناس ... فسخَّروا أنفسهم وكل ما يملكون من متاع الدنيا لنشر دين الإسلام ... وكانت النتيجة أن انتشر الإسلام في جزء كبير من العالم القديم بعد وفاته

(١) متفق عليه .

- ﷺ - بحوالي خمسين سنة فقط !.

وهذه الحقيقة قد غابت عن أكثر مسلمي هذا العصر ، لذا يجب إحياء المسلمين . . . كل المسلمين . . . كجماعة داعية ـ كما أُريد لها من قبل الله أن تكون ـ فإن معظم مطالب الإسلام ومقتضياته وغاياته المهمة لا تتم ولا تكتمل إلا بالجماعة والجهود الجماعية . . . كيف لا وقد أكَّد رسولنا الكريم ـ ﷺ « . . . **إن يد الله مع الجماعة ، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض** »(١) .

ويجب اقناع المسلمين . . . كل المسلمين . . . بأن يُنهوا أنشطتهم القومية في كل أنحاء العالم والتي تحول دون قيام جو الداعي والمدعو بينهم وبين الشعوب الأخرى وهذا هو وجه الخيرية في هذه الأمة المباركة بعد إيمانها بالله تبارك وتعالى .

وبهذا يتضح لنا أن الحج رحلة غير عاديه ! فيها تجديدٌ للإيمان ، وهو مؤسسة تربوية حيث يجتمع المسلمون كل عام في أيام معلومة لينبذوا كل أسباب الفرقة والخصومة ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** . . . ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

ويجتمعوا كذلك لتقوية الأواصر بينهم و ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** ﴾ [الحج : ٢٨] والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير . . . فالحج موسم ومؤتمر . . . موسم تجارة وموسم عبادة . . . وهو مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون . . . وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة . . . فأصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقاً رائجة، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء . . . من أطراف الأرض . . . ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم . . . يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد . . . فهو موسم تجارة ومعرض نتاج . . . وهو سوق عالمية تقام في كل عام .

---

(١) صحيح الجامع .

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهي تستشعر قربها من ربها في بيته الحرام . . . وهي ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه ، وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد . . .

والحج بعد ذلك كله **مؤتمر جامع** للمسلمين قاطبة . . . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل ﴿ ... **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ... ﴾ [الحج:٧٨] ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعاً إليه ... هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً ... ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها . . . راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان ،ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً ... قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين . . . الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدد . . . راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب . . . وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام ... في حرم الله . . . بالقرب من بيته . . . وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة . . . في أنسب مكان ، وأنسب جو ، وأنسب زمان . . .﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** ... ﴾ [الحج:٢٨] ... كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته .

وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين، وأمر إبراهيم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ أن يؤذن به في الناس [١] .

وقد بشَّرنا رسول الله – صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ بأن الحج ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى يُكفر ما قبله من الذنوب فقال : « **من حجَّ للّه فلم يَرفُثْ ولم**

(١) حقيقة الحج ، في ظلال القرآن ـ بتصرف .

يَفْسُقْ رَجَعَ كيومٍ ولدَتْهُ أمُه » (١) بل أكثر من ذلك أنَّ « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، قالوا : وما بر الحج يا رسول الله ، قال : إطعام الطعام ، وإفشاء السلام » وفي رواية أخرى « وطيب الكلام » (٢) وقال أيضاً : « الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيس لَهُ جزاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ » (٣) .

وقال العلماء : الحج المبرور هو الذي يجتمع فيه أمران :

[١] اجتناب أفعال الإثم فيه من الرفث والفسوق والعصيان . . . لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ [البقرة:١٩٧] .

[٢] الإتيان بأفعال البر،وهي الإحسان إلى الناس فـ« الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ... » (٤) وفعل الطاعات ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [البقرة :١٧٧] .

و« سألت الصدِّيقة بنت الصدِّيق، أم المؤمنين ، عائشة بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ فقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ،أَفَلاَ نُجَاهِدُ قَالَ: لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ » وورد بلفظ « لاَ ، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ » (٥) ، وفي رواية أخرى « قلت يا رسول الله هل على النساء من جهاد ، قال : عليهن جهاد لا قتال فيه ، الحج والعمرة » (٦) .

---

(١) متفق عليه . (٢) السلسلة الصحيحة .
(٣) متفق عليه . (٤) مسلم .
(٥) البخاري . (٦) صحيح ابن خزيمة

وقال النبي – صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم : « ... **عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً مَعِي** »[١] ؛ ومن لم يستطع بعدُ حج البيت فلا يفوته أن يصلى الفجر في جماعة ثم يمكث في المسجد يذكر ربه في هذا الوقت المبارك ، وكذلك المرأة في مصلاها ـ مسجد بيتها ـ منقطعين عن كل أمور الدنيا ـ فيمنّ الله عليهم بأجر حجة وعمرة فـ « **من صلى الفجر في جماعة ، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين ، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة** »[٢] أي كأجر حجة وعمرة نافلة ولا تغنى عن حجة الفريضة .

فائـــدة وبشـــرى :

علامة الحج المبرور أن يرجع الحاجُّ زاهداً في الدنيا ، تاركاً كل ما كان عليه من أي عمل لا يرضى الله عز وجلَّ ولا يرضى رسوله ـ ﷺ ـ راغباً في الآخرة ، داعياً إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ومبشراً بدينه العظيم ، مجتهداً في كل عمل صالح ، فعلامة قبول الطاعة أن توصل بطاعة بعدها ، وذنب بعد التوبة أقبح منه قبلها ؛ وإن كان الحج المبرور ثوابه في الآخرة الجنة ، ففي الدنيا عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ رفعه قال رسول ـ ﷺ ـ : « **ما أمْعَرَ حَاجٌّ قَطُّ** » قيل لجابر ما الإمعارُ ، قال : ما افتقر[٣] ، ويؤيده الحديث الآخر « **تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد ، والذهب والفضة ، وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة** »[٤] .

---

(١) البخاري .
(٢) صحيح الجامع .
(٣) الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح .
(٤) صحيح سُنن النسائي .

الصيـــام

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٨٣) ﴾ [البقرة : ١٨٣] فالمقصود من الصوم هو تعويد النفس على تقوى الله ـ عز وجلَّ ـ ، ومراقبته في السر والعلن .

وإن كان الصوم في اللغة معناه الإمساك ، فمقصوده في الإسلام الإمساك عن كل ما يغضب الله ـ عز وجلَّ ـ وذلك بتنمية ملكة التقوى عند الصائم بمراقبته لله ـ عز وجلَّ ـ طوال صومه،في علانيته حيث يراه الناس وفى سره حيث لا يراه إلا الله ـ عز وجلَّ ـ ، وفرض الله تبارك وتعالى صوم رمضان شهراً كاملاً لتعتاد النفس على التقوى مدة طويلة فتصبح سجية لها وخلقاً دائماً لها . . .سائر العام ، بل . . . سائر العمر،فإن النفس إذا امتنعت عن الحلال طمعاً في مرضاة الله ـ تبارك وتعالى ـ وخوفاً من عقابه فأولى لها أن تنقاد للامتناع عن الحرام ،ومن صبر عن الحرام بضبط جميع جوارحه عن الوقوع فيما يغضب الله ـ عز وجلَّ ـ انتصر على هوى نفسه، ومن انتصر على هوى نفسه فهو على شيطانه وشياطين الإنس والجن أقدر .

لذلك فالصوم خير لصاحبه ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ :﴿ **وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٤] ، خيرٌ له في بدنه ودنياه بوقايته من العديد من الأمراض الجسدية ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه** » [١] وكذلك العديد من الأمراض النفسية بجعله صلب الإرادة فلا تستعبده الشهوات ولا تهزه المُلمَّات .

والصوم خيرٌ لصاحبه أيضاً في دينه وأُخراه ،حيث تسمو روحه بالصوم وتَزداد

---

(١) صحيح الجامع .

تقوى الله في قلبه ، فيفعل ما يحبه ربه ويرضاه ، وينتهي عما يبغضه ويكرهه مولاه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فينال حب الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] ، فيعطيه الله الثواب العظيم ، ففي الحديث القدسي : « **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، قَالَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ ...** »(١) .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ** »(٢) ، وقال : « **صيام شهر رمضان بعشرة أشهر وصيام ستة أيام بعده بشهرين ، فذلك صيام السنة** »(٣) ... وقال أيضاً : « ... **وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ ...** »(٤) ... فمن صام رمضان واتبعه ستاً من شوال ، وصام أيضاً ثلاثة أيام من كل شهر ، كان كمن صام دهرين في عمره .

وقال أيضاً : « **من فطَّر صائماً كان له مثل أجره ، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً** »(٥) .

وقول الله ـ عز وجلَّ ـ في الحديث القدسي : « **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ ...** » ، في قوله ـ عز وجلَّ ـ « **وَأَنَا أَجْزِى بِهِ** » إشارة إلى عظيم الجزاء وكثرة الثواب لأن الكريم إذا أخبر بأنه يعطى العطاء بلا واسطة ، اقتضى سرعة القضاء وشرفه ، وقيل : « **وأنا أجزى به** » أي أنفرد بمعرفة مقدار ثوابه ومضاعفة حسناته ، وقيل أيضاً : إن الأعمال قد كشفت مقادير ثوابها للناس وأنها تضاعف من عشرة إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما شاء الله ـ تبارك وتعالى ـ إلا الصوم ، فإن الله يُثيب عليه بلا حد ولا عدد ، ويشهد لذلك قول الله

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه . (٣) صحيح الجامع
(٤) متفق عليه . (٥) صحيح الجامع .

ـ تبارك وتعالى ـ : « إلاَّ الصَّوْمَ فإنَّهُ لِي وأَنَا أَجْزِي به » .

وقال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يوماً فِي سَبِيلِ اللَّهِ إلاَّ بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً »(١) ، وقال : « صيام يوم عرفة إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده ، وصيام يوم عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله »(٢) ، وقال أيضاً : « إنَّ فِي الجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ ، يَدْخُلُ منْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، يُقَالُ : أَيْنَ الصَّائِمُونَ ، فَيَقُومُون ، لاَ يَدْخُلُ مِنهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ »(٣) .

فإن شاء الفضل العظيم زاد من صيامه، فصام يوم الاثنين والخميس ، لفعل رسول الله ـ ﷺ ـ وقوله : « إن الأعمال ترفع يوم الاثنين والخميس فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم »(٤)، وإن شاء الزيادة أكثر من الصيام في شهر الله المحرم فـ« أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ ... »(٥) ، وإن شاء الزيادة صام شعبان كله إلا قليلاً كما كان يفعل حبيبه سيد ولد آدم ـ محمد ـ ﷺ ـ « فعَنْ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ عَنْ صِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ قَالَتْ كَانَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ قَدْ صَامَ ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ قَدْ أَفْطَرَ ، وَلَمْ أَرَهُ صَائِماً مِنْ شَهْرٍ قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ صِيَامِهِ مِنْ شَعْبَانَ ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلاَّ قَلِيلاً »(٦) ، فهو شهر غفلة وشهر ترفع فيه الأعمال إلى الله تبارك وتعالى وشهر كان رسول الله ـ ﷺ ـ يصوم أكثره ، ويُنْوى فيه أيضاً الإستعداد لشهر رمضان المعظم بنزول القرآن الكريم فيه؛ فإذا بلَّغه الله ـ تبارك وتعالى ـ بفضله وأخَّر أجله حتى شهر رمضان استقبله استقبال المحبّ لحبيبه ، كيف لا وهو شهر المغفرة ومضاعفة الحسنات ـ بل شهر القرآن ـ كلام الحبيب ـ جلَّ وعلا ـ وكل ما يتعلق بالحبيب حبيب .

---

(١) متفق عليه . (٢) صحيح الجامع . (٣) متفق عليه .
(٤) صحيح الجامع . (٥) مسلم . (٦) مسلم .

ولا يفوتنا - إخواني الكرام - من اغتنام نهار الشتاء القصير فكثرة الصوم فيه ولقد قال فيه النبي - ﷺ - : « **الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة** »(١)

ولم يكن النبي - ﷺ - يخرج عنه شهر حتى يصوم منه(٢)؛ ولم يكن من هديه - ﷺ - سرد الصوم وصيام الدهر بل قد قال : « **لاَ صَامَ وَلاَ أَفْطَرَ ، أَوْ مَا صَامَ وَمَا أَفْطَرَ** »(٣) ، وفي رواية « **لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ ، لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ ، لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ** » ، وفي رواية أخرى « **لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الدَّهْرَ ، صَوْمُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّه** »(٤) .

وفي الحديث المتفق عليه « عَنِ عبد الله بْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ : «**مَا صَامَ النَّبِيُّ - ﷺ - شَهْراً كَامِلاً قَطُّ غَيْرَ رَمَضَانَ ، وَيَصُومُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ لاَ وَاللَّهِ لاَ يُفْطِرُ ، وَيُفْطِرُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ لاَ وَاللَّهِ لاَ يَصُومُ** » .

صيام العشر الأول من ذي الحجة :

قال رسول الله - ﷺ - : « **أفضل أيام الدنيا أيام العشر** »(٥) ، وقال : «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام** ،قَالُوا: يارسول الله وَلاَ الْجِهَادُ في سبيل الله ،قَالَ : **ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء** »(٦)، وروى بزيادة من وجه آخر « **ولا ليالى أفضل من لياليهن** » لذلك كان النبي - ﷺ - : «**لا يدع صيام تسع ذي الحجة** »(٧) .

ويستحب كذلك في هذه الأيام سائر الأعمال الصالحة من كثرة ذكر الله ، وقراءة القرآن ، والإنفاق في سبيله ، والدعوة لدينه و...

الاعتكاف في المساجد :

الاعتكاف هو قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق ؛ فإنه لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى - متوقفاً على جمعيته على

---

(١) صحيح الجامع .
(٢) زاد المعاد .
(٣) مسلم .
(٤) متفق عليه .
(٥) صحيح الجامع .
(٦) صحيح سُنن ابن ماجة .
(٧) صحيح سُنن النسائي .

الله ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى ـ فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى ـ وكان فضول الطعام والشراب وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام وفضول المنام مما يزيده شعثاً ويشتته في كل واد ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه ، شرع الله الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى وجمعيته عليه ... والخلوة به ... والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده ـ سبحانه ـ بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته فيستولى عليه بدلها ... ويصير الهم كله بالله والخطرات كلها بذكره والتفكير في تحصيل مراضيه وما يقرب منه جلَّ وعلا، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق ، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه ، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم ، ولما كان المقصود إنما يتم مع الصوم شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصيام وهو العشر الأواخر من رمضان ولم ينقل عن النبي ـ ﷺ ـ أنه اعتكف مفطراً قطٌ [١] .

ولفضل الاعتكاف العظيم قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **من اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق ، كل خندق أبعد مما بين الخافقين** » [٢] ؛ والاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان سُنَّة مستحبة عن رسول الله ـ ﷺ ـ طلباً لليلة القدر ، فإنه ـ ﷺ ـ « **كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ** » [٣] ، وثبت في البخاري أن النبي ـ ﷺ ـ اعتكف عشراً من شوال قضاءً لتركه اعتكاف العشر من رمضان أحد السنين .

وفي غير العشر الأواخر من رمضان ، لابد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه ، وذكره ، وصلاته ، وتفكره ، ومحاسبة نفسه ، واصلاح قلبه ، وما يختص به من الأمور التي لا يشاركه فيها غيره ، فهذه يحتاج فيها إلى إنفراده

---

(١) زاد المعاد . (٢) ابن خزيمة والطبراني بسند حسن . (٣) متفق عليه .

بنفسه ، إما في بيته ـ كما قال طاووس : نعم صومعة الرجل بيته ، يكف فيها بصره ولسانه ـ وإما في غير بيته ؛ وفى هذه الفترة ينبغي عليه أن يعتقد سلامة الناس من شره ، لا العكس ، فإن الأول ينتج عنه استصغاره لنفسه ، وهى صفة **المتواضع** ، والثاني شهوده مزية له على غيره ، وهذه صفة **المتكبر** [١] .

قيـــام ليلة القـــدر :

واعلم ـ أخي الكريم ـ أن التقرب إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ في ليلة القدر بسائر الأعمال الصالحة من قيامها بالصلاة ، وبالدعاء فيها وأفضله « ... **اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني** » [٢] ، وبقراءة القرآن ، وبكثرة ذكر الله ـ عز وجلَّ ـ وبالإنفاق في سبيله جلَّ وعلا في كل وجوه الخير ـ وأعلاها تجهيز المجاهدين في سبيل الله ، في فلسطين وغيرها ... والقيام على أهليهم وذويهم حتى يعودوا ـ وبالدعوة إلى دينه ، وبالإحسان إلى الناس بشتى الوجوه ... ـ ومنه إفطار الصائمين ومساعدة المحتاجين ـ ودعوة الغير لفعل ذلك ... كل ذلك يضاعف الأجر ، بل ويفوق عبادة الله ـ عز وجلَّ ـ أكثر من ثمانين سنة فـ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [القدر : ٣] هذا زيادة على تَفَضل الله ـ تبارك وتعالى ـ على عبده بمغفرة ذنوبه الماضية فـ « ... **مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ** » [٣] بل لربما الآتية أيضاً كما في مسند الإمام أحمد بحنبل ـ رحمه الله ـ « ... **مَنْ قَامَهَا ابْتِغَاءَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ، ثُمَّ وُفِّقَتْ لَهُ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَمَا تَأَخَّرَ** » [٤] .

ولنحذر ـ إخواني الكرام ـ كل الحذر من التهاون والتفريط والغفلة حتى تفوت هذه اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَة وإلا فهو الحرمان المبين،فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ:« ... **من حرمها فقد حرم الخير كله ، ولا يحرم خيرها إلا محروم** » [٥] ،وهو الشقاء

---

(١) مفاتيح الفقه في الدين . (٢) صحيح الجامع . (٣) متفق عليه .

(٤) قال شعيب الأرنؤوط ـ رحمه الله ـ : حديث حسن دون قوله « وما تأخر » وقال : هذا إسناده ضعيف ، وضعف الألباني ـ رحمه الله ـ أيضا هذه الزيادة في ضعيف الجامع ، وقال الهيثمي في (المجمع ٣ / ١٧٥) : فيه عبد الله بن محمد بن عقيل وفيه كلام وقد وثق . اهـ .

(٥) صحيح الجامع .

والخسران المهين « **جاءني جبريل فقال : شقي عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يغفر له ، فقلت آمين** »[١] وهو إبعاد الله رب العالمين،والسقوط في النار والجحيم «**أتاني جبريل فقال : . . . يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأُدخل النار ، فأبعده الله ، قل آمين ، فقلت آمين . . .** »[٢] .

وليلة القدر ـ إخواني الكرام ـ كما نعلم « . . .**في الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ** »[٣] وعند البخاري « . . . **في الوِتْرِ منَ العَشرِ الأواخرِ من رمضان** » ؛ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : إن الوتر قد يكون باعتبار ما مضى من شهر رمضان ، فتكون ليلة القدر ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين من رمضان ، وقد يكون الوتر باعتبار ما بقي من شهر رمضان كما في البخاري « **التَمسوها في العَشرِ الأواخرِ من رَمضانَ ، ليلةَ القَدر في تاسعةٍ تبقى ، في سابعةٍ تبقى ، في خامسةٍ تبقى** » ، وفى الرواية الأخرى « **التمسوها في العشر الأواخر ، في تسع تبقين، أو سبع تبقين، أو خمس تبقين ، أو ثلاث تبقين ، أو آخر ليلة** »[٤] .

فعلى هذا إذا كان شهر رمضان ثلاثين يوماً فتكون ليلة القدر في ليالي الإشفاع فيه فليلة اثنين وعشرين تاسعةٍ تبقى ، وليلة أربع وعشرين سابعةٍ تبقى ، وليلة ست وعشرين خامسةٍ تبقى ، وليلة ثمان وعشرين ثالثة تبقى ، وليلة ثلاثين واحدة تبقى ، هذا كما فسره الصحابي الكريم أبو سعيد الخدرى ـ رضي الله عنه ـ في الحديث الذي عند مسلم « عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ **قَالَ : . . . الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، الْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ ، وَالسَّابِعَةِ ، وَالْخَامِسَةِ** » فسُئل أبو سعيد الخدرى ـ رضي الله عنه ـ يَا أَبَا سَعِيدٍ : إِنَّكُمْ أَعْلَمُ بِالْعَدَدِ مِنَّا ، قَالَ : أَجَلْ ، نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْكُمْ ، قَالَ : مَا التَّاسِعَةُ ، وَالسَّابِعَةُ ، وَالْخَامِسَةُ؟ قَالَ : إِذَا مَضَتْ وَاحِدَةٌ

(١) صحيح الأدب المفرد .
(٢) صحيح الجامع .
(٣) ، (٤) متفق عليه .

وَعِشْرِين فَالَّتِي تَلِيهَا ثِنْتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَهِيَ التَّاسِعَةُ ، فَإِذَا مَضَتْ ثَلاثٌ وَعِشْرُون فَالَّتِي تَلِيهَا السَّابِعَةُ ، فَإِذَا مَضَى خَمْسٌ وَعِشْرُونَ فَالَّتِي تَلِيهَا الخَامِسَةُ . . .

وإن كان مجموع شهر رمضان تسعاً وعشرين يوماً ، كان حساب ليلة القدر بما بقي من ليالي شهر رمضان كحسابها بما مضي منه .

وإذا كان الأمر هكذا فينبغي علينا ـ إخواني الكرام ـ أن نتحراها في العشر الأواخر جميعه ـ شفعه ووتره ـ كما أخبرنا بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « **تَحَرَّوا ليلةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخِرِ من رمضان** »[1] ، ولعل السر في عدم تعيينها صراحة في ليلة بعينها ورفع علمها كما في الحديث « ... **إنّي خرجتُ لأُخبِرَكم بليلةِ القَدْرِ ، وإنَّهُ تَلاحى فُلانٌ وفُلانٌ ، فرُفِعَتْ** ـ أي رفع العلم بها ـ **وعَسى أنْ يَكونَ خيراً لكم** ... »[2] أقول : ولعل السر في ذلك ليجتهد العبد في طاعة ربه في جميع ليالي العشر . . . فيزداد ثوابه ويزداد قربه من ربه ومولاه ـ عز وجلَّ ـ وتحصل له حلاوة العبادة ولذتها مدة أطول ، فيبقى طالباً لها بقية عمره ، وهو بالإضافة إلى ذلك أيضاً مقتد برسول الله ـ ﷺ ـ الذي كان « ... **يَجْتَهِدُ في الْعَشْرِ الأَواخِرِ ما لا يَجْتَهِدُ في غَيْرِه** »[3] فكان « ...**إذا دَخَلَ الْعَشْرُ ،أَحْيا اللَّيْلَ ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ ، وَجَدَّ ، وَشَدَّ الْمِئْزَر**»[4]،[5] أي قام الليل وبذل غاية جهده وكل طاقته وما يقدر عليه ، ودعا أهله للاجتهاد مثله ، وترك المباح من مباشرة الأهل .

ومع ذلك وهو الرؤوف الرحيم بامته قال : « **الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ ، يَعْنِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، فَإِنْ ضَعُفَ أَحَدُكُمْ أَوْ عَجَزَ ، فَلاَ يُغْلَبَنَّ عَلَى السَّبْعِ الْبَوَاقِي** »[6] وقال أيضاً : « **تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ** »[7] وقال

---

(١) متفق عليه . (٢) البخاري . (٣) متفق عليه
(٤) مسلم . (٥) مجموعة الفتاوى ، بتصرف . (٦) مسلم .
(٧) مسلم . (٨) متفق عليه .

أيضاً : « **إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف ، كُتب له قيام ليلة** »[١] أي صلى مع الإمام قيام الليل ـ صلاة التراويح ـ حتى ينتهي من صلاته ، كتب الله له بفضله كأنه قام الليلة كلها ، فما الأجر إذاً لمن قام مع إمامه حتى ينصرف ثم استمر في قيام الليل حتى الفجر ! .

وإذا كان الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أنزل القرآن الكريم في ليلة القدر فقال : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ① ﴾ [القدر : ١] ، فقد أخبر رسوله ـ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ بالليلة التي أُنزل فيها القرآن فقال : « **أُنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان ، وأُنزلت التوراة لستٍ مضت من رمضان ، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان ، وأُنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان ، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان** »[٢] وهذا الحديث ربما يُعد أصرح حديث في بيان ليلة القدر .

(١) ، (٢) صحيح الجامع .

العلم المقترن بالخشية

قال الله تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة :١١] ، وقال رسوله ـ ﷺ ـ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ... »[١] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر :٢٨] ، والعلم هو معرفة الحق بدليله من الكتاب السُنَّة ؛ والخشية هي الخوف مع التعظيم والإجلال والمحبة ؛ وأفضل العلوم العلم بالله ـ تبارك وتعالى ـ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ،ثم العلم بشرعه عز وجلَّ المُنَزَّل في قرآنه العزيز وسُنَّة نبيه محمد ـ ﷺ ـ ثم العلم بالفروض الكفائية مع مراعاة ربطها التام بالله ـ تبارك وتعالى ـ وإظهار قدرته ـ عز وجلَّ ـ وحكمته وعجائب صنعه ـ ليتوصل للخشية من الله ليصبح المرء عالماً حقاً .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً .

وقال بعض السلف : ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية ، وقال بعضهم : من خشي الله فهو عالم ، ومن عصاه فهو جاهل[٢] ؛ لذلك لا يجوز أن يطلق على من له نصيب من العلم من غير المسلمين عالماً ، والأولى أن يطلق عليه لفظ ـ باحث .

وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ آمراً نبيه محمداً ـ ﷺ ـ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] ، فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ نبيه أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيده من العلم[٣] .

---

(١) صحيح الجامع .
(٢) فضل علم السلف على الخلف .
(٣) الجامع لأحكام القرآن .

وقال ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد : ١٩] فلا يستوي أبداً جاهل وعالم ، ثمَّ إن العالم يتحصل ـ بتوفيق الله له ـ على أضعاف ما يتحصل عليه الجاهل من الأجر ، فيعمل العالم قليلاً ويؤجر كثيراً ، وذلك لأنه يعرف الأفعال التي فيها مزيد الخير ، والأوقات التي فيها مزيد الأجر ، والأحوال والأوضاع التي يرجى فيها مزيد الثواب ، كما في حديث أم المؤمنين جويرية ـ رضي الله عنها ـ الذي سنذكره في الذكر المضاعف، فهي كلمات يسيرة قالها النبي ـ ﷺ ـ زاد وزنها على وزن ما قالته أم المؤمنين جويرية ـ رضي الله عنها ـ في مدة أطول .

ألا ترى إلى العالم يعمد في صدقته إلى قريب له فقير فيتصدق عليه فينال أجر الصدقة وأجر الصلة بإذن الله ، والجاهل همه أن يتصدق فحسب فلا يحصل إلا على أجر الصدقة فقط ، ألا ترى أن العالم يعمد إلى النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين يرى أن المجال ملائم لذلك والوقت مناسب له فيطبق قول الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى : ٩] ، أي حيث تنفع الذكرى فتؤتي الذكرى ثمارها فيثاب بإذن الله، أمَّا الجاهل فلا يبالي بذلك ـ فهمته الإنكار ـ فقط ـ أو الأمر ـ فقط ـ وقد يجلب سباباً لرب العزَّة ـ جلَّ وعلا ـ والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، فالعالم يعلم وقت النصح ووقت الترك وأيهما الأنفع فيقدمه وأيهما الأقل نفعاً فيؤجله [١] .

وبعلم من الكتاب أُحضر عرش بلقيس من سبأ باليمن إلى سليمان ـ علي نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ بالشام قبل أن يرتد إليه طرفه ، وهنا تجلى الإيمان حين أرجع سليمان الفضل إلى الله لا إلى نفسه ، فلم يركبه الغرور أو يستبد به

(١) مفاتيح الفقه في الدين .

الطغيان فـ ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] ، وكذلك كان موقف ذي القرنين ـ رحمه الله ـ الذي فتح الفتوح غرباً وشرقاً وتوّج حكمه بإقامة سده العظيم مستخدماً ما يسره له علم عصره من وسائل وأدوات ، فلما أتم البناء قال في تواضع المؤمنين : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف : ٩٨] .

ألا إن العلم الحق هو الذي يهدى إلى الإيمان ، والإيمان الحق هو الذي يفسح مجالاً للعلم ، فهما إذن شريكان متفاهمان ، بل أخوان متعاونان ، وهذا هو العلم الذي يريده الإسلام أيّاً كان موضوعه ومجال بحثه ، يريده علماً في ظل الإيمان ، وفى خدمة مُثله العليا ، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم حين قال في أول آية نزلت ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق : ١] ، والقراءة عنوان العلم ومفتاحه ومصباحه ، فإذا كان أول أمر إلهي نزل به القرآن ـ القراءة ـ كان ذلك أوضح دليل على مكانة العلم في الإسلام ، لكن الله لم يطلب ـ مطلق القراءة ـ وإنما قراءة مقيدة بأن تكون ـ باسم الله ـ وإذا كانت القراءة باسم الله فقد وجهت إلى الحق والخير والهداية والصلاح ، لأن الله الأكرم هو مصدر ذلك كله .

وقد نشأ العلم في الإسلام في أحضان الدين ، و نشأت المدارس في صحون المساجد ، وبدأت الجامعات الإسلامية العريقة تحت سقوف الجوامع ، بل سمي كل منها جامعاً ، جامع الأزهر ، جامع القرويين ، جامع الزيتونة . . . .وهكذا [١] .

فالعلم النافع ما عرَّف العبد بربه ودلَّه عليه حتى عرفه ووحَّدَهُ وأنس به واستحيا منه وعبده كأنه يراه،وكذلك علم أحوال القلب كالخوف والخشية والرجاء والرضا والصدق والإخلاص وغير ذلك ، فهذا العلم هو الذي ارتفع به

---

(١) الرسول ﷺ والعلم .

كبار العلماء وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم كسفيان الثوري وأبى حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ـ رحمهم الله جميعاً ـ وإنما انحطت رتبة المُسمَين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه ، وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظهار واللعان و... ويُفرِّع التفريعات التي تمضى الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها ، ولا يتكلم في الإخلاص ولا يحذر من الرياء وهذا عليه فرض عين لأن في إهماله هلاكه ، والأول فرض كفاية (١) .

ولنحذر كل الحذر ـ إخوانى الكرام ـ أن نكون من علماء السوء ـ الذين قصدوا من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى المنزلة عند أهلها ـ ، وقد قال النبي ـ ﷺ ـ : «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجلَّ ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» (٢) ، يعنى ريحها ، وقال أيضاً : « **من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار**» (٣) ، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص:٧٧] ، وقال بعض السلف : أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرّط .

ومن صفات علماء الآخرة : أن يعلموا أن الدنيا حقيرة ، وسريعة الزوال ، ولا تثبت على حال ، وأن الآخرة شريفة ـ وأنهما كالضرتين، فهم يؤثرون الآخرة، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم ، ويكون ميلهم إلى العلم النافع في الآخرة ، ويجتنبون العلوم التي يقل نفعها إيثاراً لما يعظم نفعه .

ومن صفاتهم : أن يكونوا منقبضين عن السلاطين محترزين من مخالطتهم ،

---

(١) مختصر منهاج القاصدين .

(٢) ، (٣) صحيح الجامع .

قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: إياكم ومواقف الفتن ، قيل وما هي؟، قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه ، وقال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص.

وقال بعض السلف : إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، اللهم إلا من ينصحهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر مع احترازه الكامل أن يفرّط في دينه فـ « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ** ، قُلْنَا لِمَنْ ؟ ، قَالَ : **لِلَّه وَلِكِتَابِه وَلِرَسُولِه وَلأَئِمَّة الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ** »(١) ، و« **مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلاَّ لَهُ بِطَانَتَانِ ، بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْه ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْه ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ** »(٢) ، فالفقيه البصير من يقترب منهم للنصيحة حال احتياجهم إليها وحين تنفع النصيحة ، ويبتعد عنهم إذا كان هناك فتنة تلحقه أو أذية للمسلمين .

ومن صفاتهم : أن لا يتسرعوا إلى الفتوى ، وأن لا يفتوا إلا بما يتيقنون صحته ، وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول ؛ وحكي أن مالكاً ـ رحمه الله ـ سئل عن أربعين مسألة فقال في ستة وثلاثين منها : لا أدري ؛ وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى ـ رحمه الله ـ : أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ودَّ أن أخاه كفاه ذلك ، ثم قال : آل الأمر إلى إقدام أقوام يدَّعُون العلم اليوم يقدمون على الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لجمع أهل بدر واستشارهم ، فما بالنا اليوم إخواني ! .

ومن صفاتهم : أن يكون أكثر بحثهم في علم أعمال القلوب عما يفسدها ويكدرها ويهيج الوساوس ، فإن صور الأعمال قريبة سهلة وإنما التعب في تصفيتها ـ بجعلها خالصة لله ـ تبارك وتعالى ـ وعلى نهج رسوله ـ ﷺ ـ ومنها

---

(١) ، (٢) متفق عليه .

البحث عن أسرار الأعمال الشرعية والملاحظة لحكمها ، فإن عجزوا عن الإطلاع على العلة كفاهم التسليم للشرع فـ ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران :٧] ، ومنها إتباع الصحابة وخيار التابعين ، والابتعاد عن كل مُحدَثٍ .

وروي عن شقيق البلخي أنه قال لحاتم ـ رحمهما الله ـ: قد صحبتني مدة فماذا تعلمت ؟، قال : ثماني مسائل .

أما الأولى : فإني نظرت إلى الخلق فإذا كل شخص له محبوب فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه ، فجعلت محبوبي حسناتي لتكون في القبر معي .

وأما الثانية: فإني نظرت إلى قوله تعالى : ﴿ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾ [النازعات : ٤٠] ، فأجهدتها في دفع الهوى حتى استقرت نفسي على طاعة الله ـ تبارك وتعالى ـ .

وأما الثالثة : فإني رأيت كل من معه شئ له قيمة عنده يحفظه ، ثم نظرت في قوله ـ سبحانه وتعالى ـ :﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل :٩٦] ، فكلما وقع معي شئ له قيمة وجهته إليه ـ سبحانه وتعالى ـ ليبقى لي عنده .

وأما الرابعة : فإني رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف ، وليست بشئ ، فنظرت في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، فعملت في التقوى لأكون عنده كريماً .

وأما الخامسة: فإني رأيت الناس يتحاسدون فنظرت في قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الزخرف :٣٢] ، فتركت الحسد .

وأما السادسة: فإني رأيتهم يتعادون، فنظرت في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [فاطر : ٦] ، فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدواً .

وأما السابعة: فإني رأيتهم يذلّون أنفسهم،فنظرت في قوله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] ، فاشتغلت بما له عليّ وتركت ما لي عنده مما ضمنه لي .

وأما الثامنة : فإني رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم، فتوكلت على الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١١][١] .

---

(١) مختصر منهاج القاصدين .